خواطر و تعليقات

الى الاستاذ الدكتور سعدون حمادي المحترم

بعد التحية والمحبة :

عشي الاتعشم كلاماً فاقداً مقومات التأثير والتغيير من قبيل التطلع المرفوض فقد كفاه تنزيها انه في احسن احتمالاته بالنسبة الى قائله لا يضيف الى قليله شيئا و في أسوأ احتمالاته بالنسبة الى غيره انه لا ينقص مثقال ذرة في اي شئ قابل للزيادة والنقصان فهو بريء من شبهة النفع والضرر الا ما كان من خسران الانشغال بقراءته و صعب أمر لا خطورة فيه فلا يندر ان يشغل ذو المركز الخطير بحل الكلمات المتقاطعة أو التفرج على فلم من الأفلام السخيفة . أما أن أكون أنا الخاسر في كتابة شئ لا يجدي فذلك شئ ما دخل حسابات قط لا في الكتابة ولا في غيرها .

واسمح لي ان اقدم توضيحا يساعد على تقبل تصرفي فاني ارى منذ زمان وفي أسف محسوس عندي ان السياسة سطت فيما سطت ، على اثنين من الكتاب المفكرين العراقيين فاحتكرتهما لسوقها احدهما كردي صوالرحوم علي حيدر سليمان فقد استهلك حياته الفكرية في عمر مبكر بكتابه المدرسي في التأريخ الحديث بأول الثلاثينات وكان منتظراً منه ان يأتي في هذا الميدان بما قد يعتبر اجتهاداً في أقل تقدير . و ثانيهما في الترتيب الزمني عربي هو سيادتك فقد التفتت بمقالاتك بعد انقلاب - أو سمها ثورة - ١٤ رمضان ، ٨ شباط ١٩٦٣ الى من نحو ثلاثين سنة فكانت - المقالات - بنظري طليعة ان تحدث نقلة في الكتابة السياسية العربية المنشورة في الصحف اولا وفي عموم الكتابة الشرقاوسطية المتصلة بالفكر والنظر ثانياً اذا تأتى لها ان تمو وتستفيض في جو يساعد على التوسع والتعمق خارج مضايق السياسة وتشنجاتها وتلوياتها في عالمنا الثالث ... بعد المئة ! لم املك وقتها الا ان اذكر الدكتور محمد مندور و انا اقرأ لك .

ولئن كنت محاطا من كل جهة بمثبطات العزم في الاستواء على سواء السبيل نحو التزود بمصادر الثقافة و التكثر من جمع نفثات الاقلام بسبب انقطاعي عما منبتي منذ سنة ١٩٦٥ عائلة ينوء بالألتزامات الموروثة الحاطمة ومنسلخاً من كل معين للعيش سلختة القوانين الجائرة الملغية للملكية المشروعة منذ اول الثورة في تموز ١٩٥٨ وما تبعها من اهوال وعهود زادتني تشردا بلا تبرير حتى افلاسي الطامل من تراثي الذي صودر ضمن ما صودر من تراث امثالي بالقانون رقم ٩٠ - الى آخر المزعجات المعجزات ، اقول انني رغم ذلك بما فيه من عجز عن متابعة الاصدارات و المنشورات المتصاعدة الثمن ، لم أخل تماماً من اصداء ما تقول وتكتب وكانت فترة رئاستك للمجلس الوطني تتيح ظهورك مديا لحساته و مناقشا بعض موضوعاته فيتأتى لي منه اقامة تخمين لنوع التطور و مقداره في قابلياتك بقياسها إلى ما ظهر منها خلال مقالاتك المثيرة فما خاب فيك ظني من ناحية الطلاقة و احكام القبضة على تصريف المناقشات في المواد البسيطة الهامشية التي يوكل النظر فيها الى المجالس التشريعية عادة ، في اي بلد تأسس به عهد ثوري ، واستشففت منها أيضا صدق توقعي لانتاج غلالة سياسية عبر الزمن حول لمعانك المبكر في الستينات فاضفت عليه من ألوانها ما جعل نفوذك الحقيقي المطرد من بيئتك وطبيعتك يعتريه غموض يغلب الوضوح في صورتك الحاصلة من خلال مقالاتك التي صدرت بروح هادئة السياسة في اطار رقابة رسمية رهوة تحتاج زمنا حتى تتقلب و تحول دون ظهور الطبائع الجبلية فوجدتك في المجلس الوطني تحترف سياسة يمشي بالضرورة على سكة ممهدة لا يجوز تخطيها . والواقع صراحة لست أستتبعي إعلام أية دولة

ثورية راسخة الجذور على أقانيم ومسلمات ثابتة يمكن حفظها وتذكر نفسها وجيرانها وليس في تحريم اي شئ عندنا مع تلك الأقانيم، ويزيدنا بعدا من الخطية ايماننا ويقيننا بان التقدم الحضاري منوط بتجاوز المراوحة في العقائد والأفكار واي شئ متصل بالانسان فهو عنصر التغيير والمتغير الاجتماعي الوحيد في الوجود المحسوس كله وما من عدو متصور للانسان في شراسة (الايديولوجيا) التي تناهت الى التجوهر الأناسي الذي لا يعتريه التغيير: يزول الاحتلال الأجنبي ويخبر الطوفان والقحط والوباء وتبقى الدروشة والهلوسة في العقائد والسياسات آخذة بخناق الابرياء والمجرمين والمحايدين وتحفز الافاعيد امام عجلة التاريخ اخذوا بعد اخذود بلا كلل أو فتور وتظل تبتعث أسباب الخصومات والحروب بين الأقارب والأباعد.. والحكاية في هذا الباب طويلة أفلص منها لأقول انني كنت استسلم نفسي من عادتي في التواري من (الاعلاميات) احيانا عند قليلة لارائك وأسعد في التلفزيون وانا مشدود الى ماضيك المرسم في مقالاتك متشوفا الى معاينتك وقد عدت الى التلبس به في اللمحة والخطرة والكلمة اذ تطفو من الاعماق الى السطح فقاعات ذهنية ونفسية ناجية من سوانح التعليمات والمحظورات، وانى لأحس في الأحوال المماثلة عنا، بقرب من عناء الشخص المحتدم بالتوفيق بين ما تنزع اليه روحه وما هو ملتزم به على علاته. أنا لم التق الا بالقليل من كتاباتك، شأني في ذلك هو شأني في كتابات غيرك من أصحاب القلم والريشة وسائل التخطيط والترسيم ولكنك، بلا شك، واحد من عدد قليل تستوقفني كتاباتهم اذا وقعت بيدي رغم علمي بالضوابط التي بدأت تفرض نفسها على منطقك منذ رجوع حزبك الى الحكم سنة ١٩٦٨. وتزول الغرابة ما قلة قراءتي لما كتبت وتكتب منذ تلك السنة وهي فترة ٤، هاما، تزول الغرابة اذا تبين ان بعضا من مقالاتي ولقاءاتي المنشورة في الصحف لا تصلني الا بعد فوات زمانها بعمر غير قصير فكيف بمقالاتك اذا كانت تنشر في صحف لا ارى جزءا واحدا من مئة جزء مما تنشر ومنها مقالتك (المعنونة: (البراكماتية: الفكر في خدمة الاستعمار) في جريدة الجمهورية فلا اذكر الا انني قرأت عددا واحدا آخر من اعدادها في الأشهر الاربعة من هذه السنة. واحتفظت من عدد الجريدة بصفحها الحاوي لمقالتك وذهب الصفحة الآخر الحاوي لوجه الصحيفة الى حيث لا ادري فاسمح ان اشير هنا الى تاريخ صدورها.

هذه المقالة كانت الحافز لي على اعتناق القلم اصاول به اشباعا لما يعتمل بنات الافكار من خطرات ورؤى واوهام وقد سبق للطيب الذكر (روفو ليشوت) ان حاول البطالة مرحومة تمثلت له في طواحين الهواء منذ بضعة قرون رحم الله مبتدعها (سرفانتس) بالكاد له من فضل السبق الى سرقة لكن تاريخي ولله في خلقه شئون.

ليس غريبا ان اهتم بمقالتك وقد ارتفعت الغرابة بما قلته من جذب مقالاتك لنظري تضاف اليه حقيقة هامة أخرى هي ان لي آراء مشروحة ومنشورة في امور تناولتها نقدك البراكماتية ولكن من زوايا خاصة بتفكيري واقتناعي. ولئن تكن متابعة كل ما ورد من اراءك النقدية أمرا يضيق عنه الاحتمال بسبب قابليتك سرمنوصاحرا للتضخم افقيا وعموديا حتى ان بعضها يمتنع من التجميع ويتأبى على الاقتصار الا بمبارة السحرة فاني ارى مع ذلك ان ما يتيقض من التعليق عليه وبيان رأيي فيه لا يخلو من فائدة او هو في الاقل خال من الضرر فالذي اكتبه في هذه السطور ليس للنشر ولا احتفظ منه بنسخة اخرى ذلك ان كتاباتي في غالبها تكون من نسخة واحدة لان اعادة الكتابة تتعبني اكثر من كتابة المقال نفسه وليس لي من اعتمد عليه في صحة النقل. والكلام بعد صدوره يسأل عنه صاحبه وليس غيره.

جاء في احدى مقالات كلام منقول من كتاب (البراكماتية فلسفة الابدبالية) لطاري ويليز نصه مايلي (ان التفكير البراكماتيكي هو طريقة الوصول الى النتائج بغض النظر عن الوسائل المستعملة اذ لايوجد فيه مقياس موضوعي لقياس الحقيقة لذلك فالمقياس الوحيد هو النجاح . فكل شئ مقبول بدون قيود طالما انه يعمل « اي ينجح » والسؤال الهام الوحيد هو هل يعود على بالفائدة ؟ فاذا كان ذلك كذلك فهو صحيح وجيد والا فهو خطأ وسمج)

هذه الأسطر التي هي باب تستهل منه مقالاتك البراكماتية في دعوتها الى النجاح وتبريره بصراحة جارحة ، هذه الأسطر التي لا يمكن ان يصدر شئ من فمن او قلم لاسباب تنبع عندي من مصادر وقناعات اراها أمثل واليق بان تكون سبيلا الى النجاح ، هذه الأسطر بكل حيثياتها المكشوفة وغير المكشوفة تحتل مناقشة محايدة بعيدا من سبق الحكم عليها أو على البراكماتية بالثوب وتدعو المنصف الى وضع موضوعها وهو البراكماتية موضعها مناسباً بين نصوص و مناهج و فلسفات وعقائد كثيرة صريحة في دعوتها الى استغلال خصوصا أو منافسيها بصرف النظر عن الضرر او الجدوى الناتجة منه وعما فيها من ضيق نظر واخلال و استغلال واستعباد وحظر منطق وتحريم مناقشة . وما اليها من امور تزري بالانسانية نفسها ولكن معتنقيها غافلون عن أنفسهم بسبب الاعتياد والاستئناس الذي يجعل العقيدة مقطوعا بصحتها ومفروغا من كونها محل النقض لما يخالفها . ثم ان هذا الرأي البراكماتي صريح لا التواء في منطقه ولا توارى في مضمونه على عكس المشهود من غالب الايديولوجيات التي تدعي شيئاً ثم تفعل ضده . وله بعد هذا البراءة من ادعاء القدسية فالأفكار التي فيها عبادة والايديولوجيات السياسية عموما ، وللاسيما في البلدان المتخلفة ، ذات ادعاء عريض في التقدس والتنزه والبراءة على حين انها تسحب نفسها الى الحاضر من ماض هو فعلا متصل من الدم والتدمير والاكتساح . والذرائعي يشترط المنفعة لمشروعية العمل لكن كثيرا من اعمال الأخلاقيين هو نقض وهدم وافناء يكلف كثيرا من الجهد وربما خلا من المنفعة مطلقاً : ترى اين المنفعة بل اين الضرورة بل اين التبرير لما فعله أهل جنوب العراق من ابراء الايام الحسين حتى اذا واقاهم قتلوه مع أهله ؟ ما الداعي لتكلف تيمورلنك تسليط نهر على مدينة اعتدها واباد اهلها جميعا كي لا يبقى فيها حجر على حجر ؟ اين المصلحة في تنازع المسلمين والهندوس على عبارة سجد في واحدة من مدن الهند ؟ العباسيون يجلسون على بساط الطعام تحته جثث القتلى من الأمويين بعضها لما يزل يختلج ! مناضلو لبنان يقطعون الوطن والشعب مزقاً والرفاق في عدن بعد الخلاص من الاستعمار البريطاني وتحقيق استقلال تبادلوا حتى رقم ٢٠ الف قتيل !! ان شعوب العالم الثالث وحكوماته عليها ان تقطع مسافات شاسعة حتى تتجاوز العبث المأفون في المصالح والمرافق والكرامات كي تدخل دنيا البراكماتية التي ترفض اول ما ترفض الانشغال بما هو غير مفيد وتشجب القفز الى الجريمة غير الضرورية لتحقيق مصلحة يكفي فيها التعقل وقد تكون المصلحة في ترك المصلحة نفسها تفاديا للجريمة الباهظة الثمن . وانا اذ اتطوع بافتراض الجريمة وسيلة من وسائل البراكماتية في تحقيق المنفعة اتجاوز اعتبارات حاسمة وخطيرة ومتعددة تؤجل التوسل بالجريمة الى آخر القائمة من باب التحدي بالكم وقد تقارب الغاءها بالمرة ذلك ان البراكماتية المفهومة من الأسطر التي نقلتها من مقالك [وهي غير قريبة من البراكماتية الموصوفة في الموسوعة البريطانية] فلسفة أو منهاج عمل مطروح لجميع الناس لا اكراه فيه ولا يحتمل الاكراه أصلا فما هي منهاجية دين لحزب او حكومة أو جماعة منظمة معروض بالقوة والناس العاديون

قد يكونوا براكماتيين اذا لم يكونوا سعوا بأعمالهم و اذا كان لها نصيب من الرفض والقبول (الواعي) فذلك محصور بالمثقفين و قد تيقنا وكون بل يختلفون في مدى أخذهم بها وكيفية التعرف في صنوفها. صحيح انها ليست في براءة العقل التقليدي الموروث من الف سنة: اعملوا الصالحات التي تعني فيما تعني رعاية حقوق الغير على حين تحدد البراكماتية المفهومة من مقالك هدفها بأنه (الشيء الصالح لي) ومن هنا ينبعث ارتباط بالمصلحية و الانتهازية وعدم شجبها للجريمة اذا حققت منفعة، والجريمة واحدة من الوسائل التي تشبع لها صيغة البراكماتية ولكن الدقة في الذي يعنيه (اشتراط المنفعة) تكشف عن صعوبة الظرف الموائم للجريمة كي تحقق مصلحة فالمجتمعات المتقدمة التي تتلد البراكماتية لا تسهل فيها مخالفة القوانين على النحو الذي نشاهده في الافلام والمسلسلات. والجرائم المربحة هي التي يتم بها التحايل على القانون والنظام وليست هي القتل والتغرير بشكل عام لان الغرض كسب منفعة ناجية من العقوبة و نادرا ما يكون القتل وما شابهه بابا للانتفاع في حياة عموم الناس. صحيح ان صيغة البراكماتية لا ترفض الكسب الحرام ولكن صحيح ايضا انها تستبعد كسبا ماديا وراءه السجن والعقوبة ولما كانت دعوتها الى عموم الناس وليس الى الوزير و قائد الجيش ومدير المخابرات و بقية أصحاب النفوذ القادرين على التملص من العقوبة فمن الواضح ان ذلك يقلل الى حد بعيد من احتمال دخول الجريمة طرفا في معادلات المنفعة لانها ستكون معادلة في متناول الجميع فهو ذو حدين: حد في يد (س) الذي هو طالب المنفعة وحد في يد (ق، م، د... الخ) من عامة الناس فيكون ان الحد المشترك بين طرفي أية معادلة يتم حذفه لاسيما في مجتمعات تتوفر بها وسائل حماية الذات والاعتماد بالقضاء، والتوسل بحرية التعبير والنشر والاحتجاج. الا ترى يا سيدي ان جرجل كسب الحرب للشعب البريطاني ولكنه خسر الانتخابات وهو في قمة مجده وانتصاره التاريخي؟ او ان نيكسن خسر ذاته بعدما انقذ الولايات المتحدة من معضلة فيتنام وفتح الباب بين بلاده و الصين؟ لقد سمعت أيرلندية كلينة لفظية شائعة في بريطانيا يقول Smuggling does not pay يقصدون بها ان اخفاء الدخل بنية تخفيض ضريبة الدخل ليس مربحا بسبب ان ذلك يكلف أكثر مما يوفر من حيث ان انضباط الحياة في هياكل البلدان لا يتيح مجالا هينا للتحايل حتى انهم قد أفلحوا الانصياع للقانون بدا تكلف والأثمان معروفة وكثيرة لا دائم لمزاحمة وقتك بل وتعرف مثلا احوال النظام والقانون عندنا وفي العالم الثالث بصورة عامة وكفى ان اقول انني رأيت المسكين الذي لا ظهر له من الاثرياء ينتظر سنتين حتى يأخذ طنا او طنين من الاسمنت على حين يحصل القوي المستغني على مئات الاطنان في يوم او يومين ورأيت من يحامل صديقه المحافظ في محافظة اخرى بمئات امتارية يبيعها باضعاف ثمنها وهذه عينة متواضعة جدا جدا.. وان عم طيران عبد الكريم قاسم اختار وقت صلاة عيد الأضحى في احدى القرى فقصف مسجدها منكلا بعشرات المؤمنين وقرأت في كتاب Kurds Turks and Arabs للدبلوماسي ان بعضا من قوات الجيش الانجليزي فيما كانت تقوم بالرحلات في اطراف السليمانية آذت مسجدا في قرية بسبب عدم تنبيه عن بقية البيوت فأخذت الحمية بعد ذلك ان يرفع علم فوق بيت العبادة في اية قرية يدخلونها. لقد قرأت سيارتك، في اغلب الأحوال، كيف يصف ضرورة طريقة احتفاله اثناء سنوات جهاده ضد الحكم البريطاني! انني لم استمتع قط بطريقة استقبال الهند لملكة بريطانيا فما بالعهد ان ضيفا سها عنه شاشة بين الأمم وركنت فجوة في صداقة الهند ناك جزء من ذلك التكريم، وليس انزعاجي ناشئا من شيء يخص شخص الملكة فهي سيدة محترمة متحضرة عالية السلوك لكن المفارقة منبعثة من عدم توقع ماجرى في الأحتفاء بشخص كان المظنون انه آمن من مجرأ ان يزور الهند بعد قرون من استعمار بلاده لها فظهر من هذه الحفاوة ان للحكاية وجها آخر. امور كثيرة تحدث في عالمنا كاشفة عن عمق الهوة التي نعيش فيها بدعاوانا العريضة في

المجد التليد والتاريخ المديد والوطن السعيد والحضارة التي (لا فيني منها) اذكر المفارقة
في اثنين منها : اولاهما ماجرى في ثورة تموز ١٩٥٨ من سحب جثث المقتولين يوم ١٤ و١٦ منه
فلقد كان تموز تلك السنة من أحر التماميز فيأتي الشامي من الشباب المترشب - ورثة الاجداد
العظام الكرام في حر الظهر (الذي يذوب منه الجلد والجلد) يسحبون جثة داعية ممزقة
ساعات وساعات حتى يغمى على بعضهم فيسعفون فيعاودون السحب . وفي سحب جثة نوري السعيد
كانت الداهية ادهى فقد بقيت ليلة كاملة تحت الثرى في اللحد فذهبت (الغيارى) ونبشوا
القبر في حماسة الضبع وأخرجوا الجثة المتورمة المتعفنة فسحبوها وسحبوها حتى اعماق
الكارثة الخلقية والضراوة البهيمية والافلاس الحضاري وقد قلت يومها : والله ان شابا
في عز الاعتلام حبا لفتاة من الفاتنات لا يتحمل ان يمشي معها في ظهيرة بغداد يوم ١٤ و١٦
تموز من تلك السنة لساعتين فقط فمن اين ضبطت على اولئك الوطنيين هذه النخوة السماوية
من القوة والجلد في المثابرة على عمل مضن يرهق مع جثة تعافها نفس الذئب ؟ والكارثة
ليست في تفسخ وتمزق انسانية الشريحة الساحبة للجيفة، وانما تتمثل بما هو اوحش من ذلك
في استهتار الجماهير العريضة غير المريضة بالمنكر الذي تعاين وتعاني
والثانية هي شيء قرأته في حلقة من سلسلة مقالات الكاتب والناشئ الوفي ابراهيم طلعت
بعنوان (ايام الوفد الاخيرة) نشرت في مجلة روز اليوسف وكيف بدأ التمهيد لمحاكمة اقطاب الوفد
بتقديم ابراهيم عبد الهادي الى محكمة الثورة وكان قد شاء لمقتل احمد ماهر والنقراشي من جماعة
الاقوياء المسلمين الذين اغتالوهما وهو رئيس وزراء بعدهما وان اثنين من المحامين تطوعا
بالدفاع عنه فرفضت المحكمة وقالة احد المحامين بذريعة انه من وزراء المتهم نفسه .. فلما جيء
رفع الى المحكمة برقية يقول فيها ما معناه انه يرجو ان ينال المتهم ابراهيم عبد الهادي من عدالة
محكمة الثورة ما ناله من المحكمة العسكرية الانجليزية التي حاكمته بتهمة اغتيال احد الضباط
الانجليز سنة ١٩٤٩ (أو ١٩٤٠) فبرأته لعدم كفاية الادلة . هذه البرقية فيها صميم المواجع
فانه كفى بؤسا ان يكون قصارى الامل في انصاف الاخ الثوري ما صدر من العدو المحتل . فمهما
حاول المتأول والمتحيل ان يأتي بالمعاذير في فتح الصورة وفداحة المحنة فلن يتجاوز
ضربات فأس في قعر الحفرة التي نحن فيها بغرض تعميقها وتوسيعها [كفى بك داء ان ترى الموت شافيا]
هذه النماذج ليست شذوذا من واقع يرجح فيه عاطلنا الثالث بعد الالف الذي ليس عالما ولا
يعلمون فالمشهود انه كلما خلا الجو فيه من حاجز بين مكانه وشعوبهم زادت النكاية والضراوة
باغراضها وحباعاتها الذين لا حياء ولا ارادة لهم وليس في قاموسهم عين لمعنى الخيار السياسي
ولا كلمة لذلك وجود في ماضي زمانهم ولا يبشر الحاضر والمستقبل بمخاض محتمل لوليد جديد
في طور التخلق . اذا قلبت اوراق الماضي صعودا الى صدر الاسلام فلن تقرأ غير صفحة واحدة سطرت
فيها محكمة الشورى الواردة في القرآن الكريم حين جرح الخليفة عمر جرحه الموت فاوصى الاشخاص
الستة بانتخاب خليفة من بينهم - مستثنى منهم ابنه - خلال ثلاثة ايام ، فتلك شورى على
صلاتها قدرها في تلك الفترة العصيبة هي شورى (القمة) لم يشارك فيها ولم يدع اليها حتى اهل
المدينة . صحيح ان تدبير الخليفة الثاني وهو قاطع امله في الدنيا كلامه فيه الحرص الذي لا حرص بعده
على مصير دولة الاسلام وصحيح ايضا ان موقف الامام علي في عدم تنازله عن رأيه لقاء
الخلافة كان شوفا هو أليق الأحياء به وان انكار عبد الرحمان بن عوف لذاته في الوصول
الى تنصيب خليفة يجتمع المسلمون حوله شرها مة ونبل وصفاقة يذكرها التاريخ ولكن لهذه
وغيرها من مواقف الأفراد السبيلة لا تعني (الشورى) ولا تسد مسد مشاركة العامة في
بناء هيكل الحكم باستعمال الخيار السياسي . ويوم هبت الفتنة التي انتهت بمقتل الامام عثمان
فقد عبرت عما نزعم من استعمال (الخيار) عدم خير من وجود فقد اوقع الاسلام في مهالك
ما نهض منها ابدا ومهدت لسريان الاستبداد بعد مصرع الامام علي لا يجد فيه عزاء غير

الاعلم على الحسين .. وانزل مع التاريخ عبر القرون وعلى علات الأحوال تجد ان البراكماتية المزدلة لاتسمح ابدا بالمهالك التي حدثت في سوح الاسلام خلال ثلاثة عشر قرنا لانها أجل و أكرم بسمو طبعها ولكن لسبب بسيط هو ان منهجها في تحقيق المصلحة الذاتية لا يقتصر على فتح الامكانات بوجه الحكام فقط ولان الغالبية الساحقة من مصالح الحكام لم تكن مصالح حقيقية بمفهوم البراكماتية و انما كانت مهالك للعامة عموما ولأغلب الخاصة خصوصا بل ان البراكماتية تستنكر ما حدث دون ان تتكلم لان ما حدث على طرف النقيض لمنهجها فهو بمنطقها و بالمعنى الذي ولدها وقد شاعت فيه وسائل التعبير عن الذات ورفض المكروه في ظل القوانين والضمانات الدستورية لمقاومة التحكم ، هي منهج التابع الى المصلحة من خلال الفرص التي تسمح بها الحياة الاجتماعية الغنية بوسائل الكسب والاعلان والحماية والتجديد والابداع والاقناع والتضليل والهداية وما لا يحصى من حيثيات هي بنت الحياة المتقدمة التي ترابطت اطرافها المتباعدة حتى تقاربت وشاعت بحيث ان الاخلال بأي مرفق يعود بالضرر على الجميع . فالبراكماتية كما أعرفها من خلال قراءتي وعيشي الموسوعة البريطانية والنص المنقول آنفا ان كانت تهمل قواعد الخلق المجردة فانها تتمسك بضوابط الأمن وحماية النفس ومستلكاتها وحقوقها بل هي تفرع حتى لهذه المضايق لانها تحرز منافع كثيرة اذا تمت الفوضى وتعطلت المرافق وتوقفت المصاعد عن منتصف الصعود والهبوط و سكنت المياه عن الجريان في البيوت أو تعطبت (أجهزة) ارشاد الطائرات والقطارات والسفن واذا توقفت الدراسات في الجامعات وتجددت دمغة المخترعين وتقاعس الموظفون أو ارتشوا فلا احد يضمن المنفعة لنفسه دون العالمين في غياب النظام . ولسنا نعلم كيف (Works) تعمل البراكماتية في احوال تتشرى فيها المصائب ويشيع القتل والخطف والتفجير .. أنا لا أعلم الأحوال والأحوال فوق ما تحتمل فلا ازكي نية البراكماتي الذي يستبيح (المنفعة) من أي باب كان فاذا ضن لنفسه المنفعة بالجريمة و تضييق الحرية لفعل ذلك ولكن استحالة المنفعة في مثل هذه الأجواء وسياط الثمن الذي تطلبه تعدل بالبراكماتية من باب البديهة لتطلب سببا يساعد على المنفعة الرخيصة . اني وان كنت انسانا غير براكماتي فان لي قدرا من تفهم المصلحة يجعلني افضل براكماتيا مصلحيا غير مهووس على ايدي أميين ويركاسا وستالين واصحاب الثورة الثقافية واكون بعد ذلك مدعوا باستمرار الى مراقبة البراكماتي والمحلل في الشبهات والمتلاعب باسباب التغير والداعي الى الويل والثبور والمترشب الى القوة والسلطان والغائب بالقوانين ومقاييس المادة والكهرباء والارتشاء والمتجبر وكل الاهناش والاوباش والمعتزين بالاثم من اي جنس ودين وفلسفة من المنحرفين اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وسلوكيا وحضاريا وبيئيا و..و.. من الاوصاف المنتهية بالياء المشددة الكريهة فمن الواضح بل البديهي ان غالبية الناس لم تستطع قط ان تكون منتفعة من الالتواء وضياع المقاييس وفساد الضمائر وفقدان الرشد فالجريمة وسيلة كسب الاقلية والاتجار بين الناس من يطلب امانا كما يطلبه صاحب سفينة محملة بالبضائع أو شركات طيران وكل واحدة من طائراتها بكذا مليون دولار أو المستر فورد الذي اذكر ما كتب عن شركاته في الثلاثينات ان رواتب عمالها ٥٠٠ مليون دولار في السنة اي ١٤٠ مليون دينار عراقي بعملة تلك الايام وكانت ميزانية العراق ٤ ملايين دينار في السنة اي $\frac{1}{٢٥}$ من رواتب عمال شركة امريكية واحدة فاذا كان جميل المدفعي أو ياسين الهاشمي أو نوري السعيد يختشي من صوت القلاقل في كردستان أو عربستان أو لبنانستان ويحاول توفير الوسائل لدرء هذه القلاقل فان المستر فورد كان أشد خوفا على مستلكاته لان الضرر الذي يصيبه من الاخلال بالأحوال والقوانين يصيب شخصه ولا يصيب حكومة يرأسها . فالدعوة الى تحقيق منفعة ذاتية بتجريد ما هو للوسائل من الاخلاقيات لا تخلو بالضرورة ولا في الاحتمال الراجح الى الفوضى والتذابح والاستهانة بالارواح والأعراض ولا الى مسح القوانين والضوابط الرادعة كي تنطلق الرغبة الجامحة

في الفرد والجماعة الى ما تشتهي لان في ذلك بحد ذاته قتلا لكل المصالح وهكذا بالتراجع في مراتب الاجتماع جملة وتفصيلا في المجتمعات المتطورة التي تدعو الى حرية التصرف والتعبير منضبطة الى حد كبير بطبيعة نموها التاريخي وترابط مصالحها وتوقف بعضها على بعض لاسيما بعد دخول العلم والتكنيك في تفاصيل الحياة اليومية فالوقوف عند حد المصلحة والأخذ بمبدأ live and let live (المصلحة الذاتية) وعناية المنتفعين من الحضارة باحترام القوانين شيء تفرضه وتحتمه معادلة ومنطقة ومفلسفة بالكف عن الافساد والافضال لا يكون لها من التأثير ما هو نابع من عطب سيارتي في صيانة وكامه الفيتر جي. ولا اعدو صنا ضيرا في شيء من الاطالة بنقل حكاية تناسب المقام في تلطيف المزاج فقد قرأت للصحفي المصري جلال كشك مقالا حول وجود متحف للآثار والفنون بالقاهرة تحوي كنوزا لا تثمن وتفتقر الى ضمانات السلامة بشكل ملحوظ فلماذا لا تنشط الى عصابات من المافيا وقبضايات شيكاغو؟ يقول ان السر هو في اعتماد هذه العصابات على اجهزة العلم الحديث وعلى التخطيط الدقيق لكل عملية وقياس الخطى بالثواني .. وهكذا. فاذا ارادت احداها نهب كنوز المتحف فهي تأتي بكادرها المنفذ فتنزل في الصباح وتضبط العملية وتنفذها بدقة بالغة. فاذا حل الوقت الموقوت تبدأ جماعة من المختفين بالتوثب من الطابق العاشر فتدخل المصعد.. ولكن المصعد لا يصل الأرض لتوقف الكهرباء وللامكان اخراج الجماعة من اشراك الا بتخريب المصعد وأمره يطول، ميتقنين رئيس العصابة بالتلفون لتنفيذ العملية من قبل جماعة (احتياط) خارج الفندق ولكن التلفون لا حرارة فيه فيضغط الرئيس واعوانه الى النزول بالباراشوت من فوق سطح الفندق لكن الباراشوت يتشبث بما يشبه سيخ العنكبوت من اسلاك التلفون والكهرباء الطبيعية مثل حبال الغسيل حول حبال المباني فلا يصلون الارض سلامة وبغيرها. لهذا تبقى كنوز المتحف في حرز من سطو عصابات العصر. وفي أنا كلام ماثل قلته من اربعين سنة واردده الآن ان ارسين لوبين يخرج في عملياته الخفيفة الظل من خلال علمه باحكام القوانين وسلطات البوليس والمحاكم في البلدان التي يمارس بها عمله فاذا اعجبه أن يستعمل طرقه في العراق فقد يمسك به آمر مخفر بالريف فيزجه في التوقيف شهرا وشهرين قبل ان ينتبه مخلوق الى اعتقاله. هذه الأهداف هي صادقة في دلالاتها كما تصدق الكارثة في مأساة العالم الثالث بعد المليون للتعددية والبرلمانية وحرية العقيدة والعمل وقواعد العدالة وقواعد الظلم وقواعد العبث والشطرنج وفي الاوزان بدكامه البقال وفي الجار والمجرور عند المعلم في الكتاب .. في كل شيء من اعلى مستوى حتى قاع الجحيم الاسفل الذي يتنزل فيه كل منقلة وكل شخطة في كلمات الخير والحق والجمال .. سنة ١٩٦٦ في مراجعتي لحق طلبته فجئت فيه لنظافتي ونجح فيما هو حرام فطير ناس من غير طينة البشر والبقر فخلفت بالأيمان المحرجة الا اراجع اية دائرة حكومية الا عند الضرورة القصوى فما طرقت بابا في اي طلب كائنا حتى مايس ١٩٨٠. وقبل حوالي خمس سنين راجعت صندوق تقاعد المحامين لاحيل نفسي على التقاعد من المحاماة بأمل زيادة طفيفة تضاف الى راتبي من الوظيفة التقاعدي من الوظيفة فحدث المكروه المتوقع اذ تلقيت اثناء السعي بين الصفا والمروة في دهاليز واروقة التقاعد العامة، تلقيت نظرتي استخفاف من موظف وموظفة لم تر بطرهما مع كلب الحراسة في بابك فكففت يدي من لحظة النظرة الثانية ورجعت الى داري وهجرت نقابة المحامين والمحاماة نفسها وجدا.

ترى سيادتك اني اركن الى الواقع وليس الى التنظيرات والتجريدات في تقويم الأحوال والاحداث فليس يخلو من المذاق ان المصيبة حلت بالناس من عقيدة تنتحلها جماعة من الملائكة تأمر بالاهلال والاكتناح ولا يسقط من الاعتبار ان سلالة القافلة أنتجها فقرة من نص ديني للعفاريت، ولقد كتبت من نحو اربعين سنة كلاما في تبريرات الطلائع السياسية المناضلة لاخفاقاتهم قلت فيه انه خير للانسان ان يعيش بلا تفسير من ان يموت موتا مفسرا. وما من تنظير يؤتى به في مرافق البشر ومهالكه ومقدساته وملعوناته يكون له سهم من الأهمية والاعتبار اذا عام في الفراغ منقطعا عن الواقع والتجربة فاذا اكتفينا الى حكمة تقول (غير مكان للطفل صور دار الحضانة) فستكون حكمة قاتلة للطفل في دور الحضانة بالبلدان المتخلفة وقد تكفر

الحقائق في بعض البلدان حتى يكون تعفف بعض الموظفين سببا لفقد المشاريع التي تقدم العمل فيها بالرشوة فما جدوى كمال بناء المستشفى اذا كان المسئول في موضع الكهرباء يعطله بسبب وجود مخالفة رشوية في بعض مراحله السابقة التي ما تقدمت الا بالرشوة. واضح اني لا أقصد بما اقول الترحيب بالاشواء ولكني اعجب بذلك عن واقع غير ملموس. لأن تنفذ بريئاً من الاجرام بالرشوة خير من تركه يموت قبل ذلك. ولا اكشف سرا إذ اقول ان اعداء استقلال القضاء ذوي السلطان والمال هم رأس الفساد في البلدان المتخلفة لانهم المستفيدون الأوحدون من الرشوة ومن المصلحة المحمية بها اما سواد الناس من المتنازلين عن ادميتهم بفقدان الخيار في الحياة العامة فلا وزن لهم على الاطلاق. وقد قلت في بعض كتبي ان الناس المتنازلين عن حقهم في الخيار السياسي هم محكومون في جريمة التنازل لكنه حكما مؤبدا فالسارق يقضي في السجن خمس سنين أو سبعا يخرج بعدها الى النور ولكن المجموعات البشرية [ولا اقول "الشعوب"] العائشة بلا خيار أو رأي في قضايا حياتها تظل تدفع ثمن فقدان ادميتها بشكل مستمر من حريتها وكرامتها وشرفها وعالمها وحياتها. ومن الواضح ان القضاء على مبدأ فصل السلطات يدمجها في سلطة واحدة ضوابط طريقة للتحايل على شكل الواقع بزمانه ومكانه وانسانه وحيوانه ودفعه الى حيث تتجه رغبة الحكام والاقوياء وقال رجل ذكي مات من نحو عشر سنين ان أصحاب الشعار الاشتراكي المتغزل في التأميم يأذن فيؤممون البشر اولا فيكون ماله وحلاله وحياته لحما مؤجلة في طوابع مكاسه. وقرأت في مجلة ادبية علمية سورية اشياء كثيرة من كيل المديح للاشتراكية فالتقيت من خلالها بقول واحد منهم هو صفيقة ظريفة اشتهرت بها منذ اربعين سنة فقد قال بصدد الاشتراكية انه لا يجوز نسيان الخطورة المتأتية من اجتماع المال والسلطة في جهة واحدة. واضيف انا ان الخطورة تزداد بازدياد التخلف فالمجتمع المتخلف لا يستطيع العيش في الهرات التي يمارسها بوكاسا حتى ولو كان مجتمعا محكوما بشخص واحد مثل ستالين فالحياة المتخلفة تتنافى بطبعها مع الاسفاف الى مستويات حياة الطور فلا نظن ان سياسة ستالين فكرت في اشاعة الرشوة والتمهيد للتحلل و القضاء على النظام واختلاق التفاوت بين المنتسبين الى مراتب الجيش، فما فتئ ان ستالين كان ذرائعيا فقد كان متناغما مع المستوى الذي وصل اليه الشعب الالماني في مجمله يستثنى منه تفرد الحزب النازي بالسلطة ومن فوقه ستالين يتمتع بالتقدس. فالبنيان السليم الذي قام عليه القضاء [محاكمات نيرنبرغ] والمرافق العلمية والاقتصادية والعسكرية بقي سليما ليس بمنة من ستالين وانما بزخم الواقع الذي أنجم تلك الأسس.

جاء في أوائل العهود الاولى من مقالتك مايلي: ان مؤسسي هذه الفلسفة الرئيسيين هما وليم جيمز وجون ديوي وهي مشروحة في كتاباتهم العروفة. ومن التعابير الهامة التي تزيد من توضيح هذه الفلسفة هي أنها نوع من المثالية الذاتية والتي تؤكد ان ذهننا هو الوحيد الموجود حقيقة اي ان العالم الطبيعي والاجتماعي موجود فقط في احاسيسنا وافكارنا. وبغض ذلك عمليا انه لا يوجد مقياس موضوعي فوق افكارنا واحاسيسنا نقيس به ما هو خطأ أو صواب. فالخطأ والصواب هو ما تكون في افكارنا نحن اي ببسيط العبارات ما تكون عندنا نحن وتلك هي نظرة الرأسمالية العالمية التي تبلورت في الولايات المتحدة.

هذا الرأي بجانبيه المصدق والمعترض قديم ناقشه علماء الاسلام منذ اكثر من الفاسنة وقالوا فيه ان حقائق الاشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا "للسوفسطائية". ومنه او من جذره جاء قول القائل "انا افكر فانا اذا موجود". والانسان بطبيعة كونه مخلوقا يفكر ويعقل وليس كالاحياء الأخرى منقادا للغرائز البسيطة التي لا تقارن ولا تقيم المقدمات يستدل منها النتائج فيخطئ فيها أو يصيب، هذا الانسان في اصفى حالات تجرده من الحوافز والروادع فليق ان يذهب هذا المذهب وما هو اقرب أو ابعد منه الى الحقيقة وتأتي النسبية لتنفي أو تخامن الثقة المطلقة

من ثبوت الحقائق وصفتها (النهائية) سواء منها ما كان ماديا ام عقليا حتى تفرع نظرية الكوانتوم وتجاذبها نظريات اخرى في الفيزياء لكل منها منهج خاص به. وعلى قدر على المتواضع بمقولات الفيزياء الكلاسيكية فاني قرأت ان هنالك محاولات جادة لايجاد صيغة واحدة تتضمن اهم اجزاء النظريات الفيزيائية الكبيرة (واظن ان عددها كان الى ما قبل بضع سنين تسعة) لتنهض نظرية واحدة تتكفل بالاجابة على كل الاشكالات وليس هذا هينا في الحقيقة القائم ولكن ارى من المفيد ان اقول ان الفيزيائيين السوفييت مالوا الى النظرية التي تقول بالحتمية وهو حتمية في نتائج المعادلات الفيزيائية وهذا غير منتظر من ناس يقولون بالحتمية في التاريخ رغم ان التاريخ هو تصرف مخلوق ذي ارادة قد ترفض احيانا الانصياع وتقبل بأخرى وتتزحزح عقائده ونظمه وقد سياساته على اشد الاطراف تناقضا هو ان انيشتاين يقول بالحتمية في الفيزياء ومن كلامه هنيئا ان الله لا يترك مصير خلقه الى ذهر المقادير وهو كلام جيد في حدود الايمان بالله والتقاء (العبثية) في الكون.

اما ان تكون الاشياء في هذه الصورة الذهنية التي تتراءى لك ولي انها الحقيقة فهو كلام سطحي خال من العمق الذي تطلبه لعبة الذات وليس بمدلولات الوجود، وتنقضه التجربة اليومية لملايارات المرات في مجموع تصرفات كل البشر ومجموع آرائه وتصوراته. ولكن الكلام لا يستقيم فيه على هذه الشاكلة فالحقائق المادية الخاضعة للقياس والتجريب وكذلك القوانين الرياضية والهندسية وما اليها ذات البراهين يمكن التأكد منها والركون اليها بتحكيم الاجهزة والقواعد المستعملة في اختبارها وقد ابتدع الذهن والعقل لهذه الوسائل للتوصل بها الى حقائق الاشياء المادية وتوظيفها في تحقيق المرغوب والمفيد [ولا نناقش كيف ان المفيد لزيد ضار لعمرو وقد تقل مصائب قوم ...] أو في دفع الاذى وتسهيل الصعب وكلها اوصاف من جنس واحد يقع في الجانب الايجابي لعمل هذه الوسائل. أما قضايا الجمال والعدالة والحق وما رجحية هذا على ذاك من السلوك الاجتماعي وسواء القانون الوضعي فتلك أمور مجال الخلاف فيها واسع وعميق وبعبارة اخرى ان جميع الحيثيات المرتبطة بوجود البشر وتحيزه وذوقه واساسه ان كل ما هو تحقيق أو تأليف أو تصور بشري يمكن ان تتناقض وتتحارب فيما بينها ولكنها مع ذلك يمكن أن تصدق في الآراء المتباينة أي ان تحلو هذه الآراء من نية الكذب وتكاد هذه المقولة ان تكون بديهية فوق مراتب المناقشة اذا استحضرنا تطور الملابس والمأكولات والملاهي كلها من المجتمع الواحد في اجياله المتعاقبة فقد يتعايش الأكراد مختلفين في الدين مع اليهود الساكنين كردستان لأكثر من خمسة. فالعقل البشري الذي يطور العجلة الى مركبة فضائية خلال احقاب الزمان يكون قد مر بمراحل فكرية وعقائدية واخلاقية غير معدودة أمن بصوابها في أدانها مع احتمال اختلاف افراده في هذا الايمان مع وجود اختلاف مؤكد يبلغ حد الكراهية والاستنكار والحرب في المرحلة الواحدة بين مجتمع ومجتمع او بين فئات المجتمع الواحد. وما قلته في الاشياء القابلة للقياس والتجريب وامكانه التوصل فيها الى اكثر كلام صحيح في ذاته ولكن التسليم به غير حتمي فالكثرة الغالبة من الجهلة ترفض التعليل الصحيح لظواهر الطبيعة ولم يزل من الناس من يرد (الرعد) الى ملاك ويعلل الزلزال بحركة الثور تحت الارض وينسب الخسوف والكسوف بالحوتة أو بالعفريتة. والجهل لا يمنع من اتخاذ الجاهل مصداقا او تفنيدا أو تعديلا لاحدث النظريات فالنزاهة وغيرها لم توضع لفئة دون فئة فكل انسان عاقل هو هذا الرأي المقصود بالمنفعة البراجماتية بل نستطيع من باب الاستغراق ان نأخذ المجانين في انواع الجنون والقاصرين في مختلف الاعمار نماذج نمتحن بها مدى اتساع الاداء للتطبيق ما دامت أنها لم تضع شرطا مانعا. ومن منظور امتحان الانسان في المسئولية المأخوذة بنظر الاعتبار في الاداء والنظريات والفلسفات تدخل المرأة في نطاق خاص يفرزها عن الرجل. وفيما يلي أنقل سطورا من الصفحة ٩٥ من كتابه المرسوم (من هموم الحياة) لسنة ١٩٨٨ تتناول الانسان من زاوية مناسبة لهذا المقام وفيها ذكر لدور المرأة او شأنها في سياق الموضوع المطروق والمرجو الاتضيق بطول ما سأنقله فكل مسألة من نوع (controversial) تحتاج الى الشرح الوافي. يبدأ الكلام من اواسط السطر الثاني من الصفحة المذكورة:

« ويمكن قياس الفرد المتوسط مع هذا فيما يتصل بقوته المحدودة في حدود ذاته وذوات الآخرين على قدر تفاهة عقله. ولابد من ملاحظة لاتخلو من وجاهة في هذه الناحية (التعقل والمصلحة) فالمعروف ان اوائل العمر في طور الشباب الناضج هي مرحلة سابقة على طور العقلانية والمصلحة في طفولة وحداثة وسذاجة خالية من مسئولية الانتاج والاضافة وتحري الربح. ويكون طور الشباب الناضج هو مرحلة اجتماع القدرة والحصافة في الأنسان وتأتي بعدها بسنوات للاشقى الثلاثين [اي طور الشباب الناضج] مرحلة الكهولة التي فيها تحفيظ الحصافة بنقص شديد في القدرة. فالعمر الذي يجمع القدرة والعقلانية هو ما يقع بين بدايات فجة ونهايات تضمحل بافتراض خلوه من العقد و التشنجات والهوشات وباختزال ما فيه من عنت وهراء ما فاز منها عمر قط.

« وتضاف ملاحظة اخرى هي ان (الانثى) كانت في كثير من بلاد الله تعيش خارج المعادلة التي يقيم عليها الفيلسوف افكاره التاريخية والاجتماعية وهي مازالت كذلك في كثير من البلاد. اما كيف تستقيم الامور عموما بفضل هذا المتسع المحدود للاجتماع القوة والعقلانية في (الرجل) فانه جوابه أولا وقبل كل شيء هو انها لم تستقم قط على حسب ما تقتضيه الفلسفات من استجابة (الانسان) لحوافز المصلحة فلا كل الناس يستجيبون ولا كل الاستجابات مصلحية عقلانية ولكنها استقامت في ماضي الزمان على وجه من الوجوه ~~استقامت~~ لان الحياة والمعيشة كانت تطرد من يوم الى يوم دون ان تلتفت الى الصوم الفلاسفة في احتياجها الى حياة مبنية على المصلحة العقلانية كي تصرخ منها تسبيبا عقلانيا لمجريات التاريخ فالدنيا كانت تدور من ذاتها بلا تدبير متقن. والحكومات تسير الدولاب على قدر كفاءتها في العدل والظلم، والناس تتعامل مع الموجود بما تملك من وسيلة الكسب وكانت العادات و الأعراف تستقر عبر الزمن فترسم ...» انتهى الكلام المنقول

على ان مشكلة التطابق بين الحقيقة الموضوعية وبين صورتها المرسمة في ذهن الانسان لاتنتهي هنا ولا كانت منتهية بالقدر المذكور منها في مقالتك. والكلام في ذلك يطول الى غير مدى منظور فلو تفرغنا لاستيفاء الكلام عن (الجمال) وهل هو موجود حقيقي غير مرتبط بمخيلة البشر في تسميتها الأشياء بالجميل والقبيح..؟ هل ان جمال قوس القزح هو حقيقة مطلقة ام نسبية تنبعث من الموازنات والمواضعات والمقاييس التي يختلقها البشر أو يقيمها؟ وجمال الزهرة هل هو ما يحبه البشر أو هو ما تنجذب اليه الفراشة من الوانها؟ وهل تشعر الفراشة ان الزهرة جميلة؟ وهل تحس الزهرة نفسها بجمالها؟ ام هل ان كائنا ذا عقل يعيش في اعماق الفلك يتفق مع البشر الساكن في الأرض على وجود جمال للزهرة وهل يوجد عنده مفهوم الجمال أصلا؟ والبشر الأرضي هل يتفق كلامهم على جمال زهرة معينة بذاتها فانهم يختلفون الى حد التضاد في جمال الأغاني؟ كيف يحدث ان ترتيب المائدة يكون جميلا أو قبيحا بحسب طريقة الترتيب؟ وما جمال الطعوم، هل هو حقيقة ثابتة ام هو الاعتياد؟ لو كان حقيقة لما اختلفوا فيه. وهكذا الى نهاية قائمة لاتنتهي من الأسئلة التي للاجواب عليها بشكل قاطع. اننا نحس وراءه الكثير ونتفق عليه ولكن لا مانع من القول باحتمال وجود اشياء لاتحس بها وكائنات من الممكن أو من المتصور ان يكون كل الاشياء محرومين من قوة الذوق فلا ندري عندئذ هل نقول انه لاتوجد طعوم ام ان لها وجودا بالقوة Potential وننتظر فائقة قادرة على الاحساس بها وعلى هذا الاساس ينفتح المجال لنسبة عشرات الصفات الكامنة لكل شيء في الوجود ولنا في محدودية رؤيتنا المقتصرة على ادراك الأمواج بين الأحمر والبنفسجي وفي الطبيعة انكشفت حتى الآن اشعة هي بقدر الاشعة التي نراها مضروبة في عشرة ملايين، لنا في ذلك ذريعة لافتراضات أقل ايغالا في الغرابة من مثال محدودية الرؤية البشرية. وفي هذه الدوامة من الافتراضات المبنية على الاحتمالات المعقولة تختلط الحقيقة بالنسبية وتختفي مسألة التطابق بين الواقع والتصور لضياع الواقع نفسه بين الاحتمالات.

لقد قلت ان الواقع الموضوعي موجود سواء احسسنا به ام لم نحس وسواء كنا نحن موجودين للاحساس به ام كنا غير موجودين ونحن انفسنا قد خلقنا من واقع كان موجودا قبلنا بمليارات السنين. وكان البشر قديما من الوف السنين يعتمد في الغالب على حواسه وعقله للحكم بوجود الاشياء وعدمها وفي طور لاحق بدأ في ابتداع وسائل للعد والذرع والوزن كانت في مستهلها بدائية ثم تطورت. وكان

لدانة تجربته في الوحي وافتقاده وسائل فعالة للمعرفة ينشغل غالباً بالأشياء المحسوسة ولم يكن قادراً على التخيل الواعي لأسباب الظواهر فمن اين له السبيل الى تمثيل سبب مفهوم كحدوث البرق كما يفهم حدوث الوحل من اختلاط الماء بالتراب فيضربه في الهجوء الى القيب. وقلت في ذلك قولاً منذ زمان بعيد نشر في احد جزأي كتاب الوسيم (مرقوش و ده وروبه / ـ الانسان وما حوله) المؤلف في الكردية في السبعينات وهذا نصه أو ما هو قريب منه: «ليس قصارى العقل ان يمتنع عن تفسير الاشياء التي لا يفهمها ولكنه يفسرها تفسيرات خاطئة». فالغرائز في البهائم وفي البشر لا تتصدى لتفسير الاشياء، ولذلك لا تملك البهيمة عقيدة ولا فناً ولا علماً. فالعقل ميزة الانسان العظمى والفاصل الحقيقي بين الانسان والحيوان وهو يخطئ ويصيب ويقع في الضلال الذي لا يمكن ان يقع فيه الحيوان الأعجم. وقلت ان العقل الذي يدرك صوته الذي لا يدرك فلا ثنائية في المسألة. والعقل هو الذي يطلب لغة يفصح بها عن مدركاته ومستغلقاته وقد بقيت له أصوات تشبه الهمهمة والمواء والهرير تعبر عن حالات الغريزة المختلفة من غضب وخوف ورجاء. والعقل هو الذي يجعل للعمل معنى اجتماعياً فما تقوله الماركسية من ان العمل خالق الانسان كلام مبتور فلابد من انبثاق الفهم أولاً لكي يكتسب العمل مظهراً اجتماعياً وتأريخياً ولوداً ومتغيراً الى الأحسن ولو كان العمل وحده هو كل شيء وجب ان يصبح أكثر البهائم شراً فكلها تعمل وكثيرة منها يبالغ في العمل ولكنها تظل بهيمة لا يغيرها تطور ولا عملها يتطور. والواقع هو ان التجاء العقل الى التفسير الباطل للاشياء التي لا يفهمها هو بالاساس باب للاساطير يسنده فزع ويمهد اليه النفس بخوض ارهاصاتها وتحريكاتها [سيكشف العلم تباعاً عن مصادر الاسطورة المكملة لضلال العقل كما اعتقد ويكفي العقل دليلاً على انه منبع الاساطير كون الحيوان الأعجم ليس له اساطير لانه لا يملك عقلاً].

هذا الذي قلته في صفة العقل من حيث طلبه لتفسير الأشياء يفتح الباب الى قول حاسم وخطير وهو ما يلي: فانه مع علمنا بوجود عالم مادي قائم وعالم مادي سيقوم ويتغير ويتطور ويموت يضمحل [النمو والاضمحلال يعتري الأحياء في أظهر ما يتراءى للفكر] سواء كنا موجودين ام معدومين وهو موجود بتركيباته وقوانينه ومقتضياته وأحواله وكيفياته وكل حيثياته التي نعرفها والتي لا نعرفها وانا نستعين في فهمه وكشف غوامضه واستكناه قوانينه وثوابته ونواقضه وكل شيء فيه بالآلات والاجهزة العلمية المتطورة والتي ستتطور الى حد الأعجاز في زمان أفشخن في فتام رحلة المعرفة والكشف تحتاكم الى فهم عقولنا لهذا العالم بشكل مباشر أو عن طريق الأجهزة [والكلام يشمل الفئة المثقفة وليس الأمي والجاهل ونصف المتعلم والمتعصب وأغبار النظر والمصاب بلوثة والمحكوم بالنظريات والايديولوجيات المفرغة في قوالب] أو عن طريق البارا سايكولوجي أو اي طريق من طرق المعرفة والاحساس بالاشياء فبالرغم من ان احساسنا وعلمنا وأجهزتنا وقوانا الخفية قد أخطأت في نقل الصورة الحقيقية للواقع الى اذهاننا فاننا نثق بذلك المطابقة بينهما فنحن لا نملك إلا أن نثق بادراكنا واحساسنا على علاته. وليس فيما أقوله مثالية ذاتية وانما هو واقعية لا فكاك منها فانك تحتاج الى نبي أو رؤيا من اهل اليوگا لكي يصحح خطأ الآلات والافهام والأحاسيس انما انك تحتاج فيها فوق فهم العقل والاحساس والآلات لتدارك الخطأ في شيء يبدو في كل القياسات انه الحق وحده. وليس نادراً ان يخطئ النبي وصاحب اليوگا فليسوا الا بشراً [بيني وبينك لم اصطنع قط احتساب دار ابي سفيان بمقام الكعبة يوم فتح مكة]. وانا اذ استعين بهذه الصورة المبالغة في التحفظ ضد الخطأ أكون قد أهملت الواقع المعيش الحالي من الآلات والكمبيوترات في شراء النصل والفستق حتى لا يظن الأكثرى بصلاً والحصا فستقاً. ان حارساً بالليل يرى شبحاً فيظنه لصاً فيتبين بعد ذلك أنه مجرد جاره لم يكن في سعة من أمره كي يستعين بناظور ليلي او اداره احساس. سائق الطائرة اذ يقرأ في لوحة اداره شبحاً يظنه طائرة عدوة لا يملك وقتاً طويلاً للتثبت من صحة ما رأى فتأخير ثانية قد يقتله. وما اكثر ما وقع للقوافل ان ظنت السراب ماء. ولو أحصيت عمل الافراد والجماعات والحكومات والعصابات على مدى سنين وسنين فانك تصادف ناساً ينساقون الى التصرف وفق ما يتراءى لهم ولا يملكون طريقاً آخر

يعيشون فيه. والحالات التي ينفسح فيها مجال الصبر والأناة وانتظار نتيجة التجربة حالات نادرة اذا قيست الى حالات المتسرعين على ايدي الارض كالذين وعثب الفلاة سعيا وراء العيش. لنتصور ربة بيت ترجع في طبخ التمن الى الكمبيوتر في مقدار الملح والماء والدهن والأرز فاذا ارتاحت الى نتيجة الثمن في الحالات العادية فتجتاز اذا أضافت (ماء دجاج) الى التركيبة وتضيع في الحسابات مع المرق والخبز والسلطة. فخلاصة القول اننا اسرى الضرورة في رضوخنا لما يمليه علينا فهمنا واحاسيسنا وقوانا المدركة عموما لاننا لا نملك غيرها سبيلا الى الحقيقة سواء في قراءة الواقع الى ام الواقع الكومبيوتري ولو نصبت على كل انسان مرشدا لما أمنت من الخطأ وقد يكون المرشد هو المخطئ، وسنرى في المحصلة النهائية ان الرضوخ الطوعي لحكم الفهم والاحساس الذاتي سواء كان ذاتي أو ذات شخص آخر يرشدنا، هو أسلم وأصح من المبالغة في تحاشي الخطأ فقد ثبت ان ما يضيع علينا من جهد ومال بالوقوع في الخطأ المعتاد أقل من اضاعة الوقت والفرص في استخلاص الحقيقة كاملة. وما يدرينا اننا بعد العثور على الحق سنفوز في اتخاذ الوسيلة والمزاج المناسبين للحالة الموثوق منها فالفتاح مرة الفرن للتحليل ربما نعثر على أصح الوسائل.. ثم كيف نتعامل مع بالريح الآتي من العقلانية والمنطقانية والفرضانية في السوق والبورصة من غير الخبرة الآتية من الممارسة وتقنية مصادرها التنقيفية الآلية والبشرية ونحن في كل الأحوال منتهون الى قناعة الصواب الفكرة التي نظنها متطابقة مع الواقع فنمشي فيها الى حيث لا نستطيع التحكم لتشابك الارادات والأفهام فيه. وفي هذا المجال قول أصح به أو اسد به ثغرة في مقولة مشهورة فحواها ان البشر يتبع مصلحته وهي صيغة تصور تصرف الانسان على انه اعمى وامثل ما يقدم عليه ولكن ارى ان البشر يتصرف في ضوء الصيغة التالية وهي (انه يتبع ما هو بنظره مصلحة) مادية أو معنوية وقد تكون مصلحة حقيقية أو موهومة حقيقية فهو لا يعبد الجزر وشيخ الطريقة والقائد السياسي الا لتيقنه حقيقي او تظاهر مفتعل بان معبوده جدير بالعبادة وهو في تظاهره المفتعل أعقل من المتيقن المخدوع ولكنه انتهازي. ولطالما كررت رأيا لي في اشياء يتم تقريرها بشكل نهائي وجازم فقلت مرارا اني لو استطعت لألجأت الناس الى الاستعاضة عن البشر بالكمبيوتر في مرحلة الحكم او القرار النهائي فالبشر لا يكون في سياق الحق الا اذا توفرت له خصلتان نادرتان هما العزم النافي للخطأ والنزاهة المانعة من الالتواء على حين نجد الكمبيوتر حصينا من الالتواء بطبيعة تركيبه وهو موثوق من صحة الحكم متى ما تزود بالمعلومات الصحيحة. فنحن سواء كنا أو لم نكن براغماتيين فلا نملك شعاعا هاديا الا ما يستوقده عقلنا من زيت المعلومات التي نراها صحيحة بعد القضية أشد ايغالا في الذاتية فان البشر في آحاده المتمازين الموصوفين بالأمانة لا يقف عند نزاهة الآلات العلمية ودقتها في الحكم ليس فقط بسبب كون امور كثيرة مثل الرحمة والشرف والوطنية والمشاعر الانسانية عامة خارج تناول الآلات وتقديراتها فلو اجتمعت كلها لتثمين الجمال في صورة زيتية أو صوالام على وليدها لأخفقت فيه لأنها لا تملك احاسيسا بالعواطف ولا مقومات تثمين القيم المجردة، اقول ليس لهذا فقط وانما لأنها قاصرة عن شفافية النفوس المرهفة المكتفية ذاتيا بالقدرة على الاستشعار. وكلاهما يخص الواقع في هذا الزمان ولا استبعد ان تبلغ الأجهزة العلمية في مدى عشرة الاف سنة مديات تسبق بها الزمن الى مليون سنة قادمة وترجع القهقرى الى الماضي لتأتي منه بالخبر اليقين. ولقد قلت ضمن ما قلت في مقالة "نفض عنزة عن صبين الشن" وقد قرأتها في ندوة بأربيل يوم ١٩٨٦/٩/١٠ ونشرت في كتابي (من هموم الحياة) المذكور آنفا في اول صفحة ٢٦ منه. قلت ما يلي: "بل انها - اي المعرفة - ستتجاوز الحقيقات كلها عبر الزمن الذي لا يعيقه شيء فاذا كانت العنزة من الآلاف - سنة - دون الكفاية لانطلاقها الحر فانها في الزمن سعة الدائة

الف والمليون سنة، بل انها ستبلغ مديات من العمق والاتساع والثبات تتجاوز بها مفهومنا للزمن نفسه: انها ستخلف وراءها سرعة الضوء فتسخر الزمن عطية قد تبطئ وتبطئ حتى التلاشي وتشرع وتشرع حتى تخلف نفسها ظهريا». وكنت قلت قبلها في الصفحة ٤٥ مايلي: «... فقد يأتي جهاز الغد باكتشاف وسيلة في طوايا المجهول تترجم احاسيس البهائم الى لغة مفهومة في قاموس البشر فليس بالمعرفة عسر صعب او تصلب شرياني كي تعيا بالمحسوس أو بالمفهوم أو بالمستحيل أو بالمستكنه أو بالمستتر أو بالمستتر الذي يطلب الف سنة من الفكر والنظر والتجريب وياليت ان للجماد سحة روح ولمسة حس تحتجب اليوم من فالق الذرة ومرتاد الفضاء، فقد يطلع علينا في غد مرتاد الذرة وفالق الفضاء فيختصر به المسافة الفارقة بين المعرفة والمطلق الى حد الملامسة تكون بعدها الملابسة فالمعرفة مراح بلا انتهاء تتراح فيه انانية الانسان على مقاس الازل والابد زماناً واستطالة البعد السحيق مكانا لولاها لانظم الانسان في شاقيل من اللحم والعظم يتعثمها سطح الارض». والمقصود بالملابسة هي التلبس بالمادة والحلول في جواهرها وطبيعتها ولا تتعدى الفيزياء الى ملكوت الخالق للاختلاف الطبيعتين. وقلت في هذا المجال قبلها بعشرين سنة ان الانسان لا يملك الان يكون ذاتيا حتى والموجودات العلوم والاكتشوف والاختراع فلا مهرب من ان تمر معلوماته ومحسوساته بوعيه وعقله فيقتنع بها فتكون جزء من معقولاته وقد يخيب في تقبل صحة المعلومات التي تصله فيرفضها رغم صحتها بل ان الأمر ابعد من هذا محلوجا في شكم الموضوعية للذاتية فالعالم نفسه وهي في مراحلها الأولى مشوبة بالنقص وبالوهم فيعتنقها الانسان على أنها امر مقطوع بصحتها وكفى لذلك مثالا ان علماء الاسلام طابقوا بين القرآن وفلكيات بطليموس ونعلم اليوم انها باطلة. وهكذا فما بمر وقت حتى تتغير هياكل العلوم بمحتوياتها الى محتويات جديدة فيعتنقها الانسان مجددا ثم يكتشف خطأها فيغيرها وفي كل مراحل التغيير لهذه يظن أنه موضوعي متمسك بصحة الاشياء التي يؤمن بها وحقيقة أمره انه متمسك بما يعتقد انه صحيح. والكلام دائر في ناس لا يركبون رؤوسهم، خاضعين لحكم التجربة والا فالناذج من المتعصبين والمتحيزين والكارهين في العلوم والآداب والفنون اكثر من الهم على القلب. والعالم المنتسب الى جهة سياسية أو تمذهبية داعية يسخر علمه حتى لأضاحيك في اي شيء يفيد جهة انتمائه حتى اني قرأت لعلماء دينيين من المغرب في الثلاثينات تفسيرا للقرآن يكفر كل انسان يقول بكروية الارض فما بالك بمن يقول انها تدور حول الشمس. وبحساب بسيط مع شيء من التمعن يظهر للبديهة ان الغالبية العظمى من سكان هذا الكوكب اذا استطاعوا ان ينسلخوا من عقائدهم وايديولوجياتهم التي تستعبد ضمائرهم وعقولهم ونزواتهم فسيتخلصون الى الابد من القيود التي تكبلهم لحساب غيرهم فأصبحوا احرارا ينطبق عليهم وصف البراكماتية بما فيها من عيوب فتسكوا بالـ (أنا) وما ينفعه ضمن ضوابط الحضارة المانعة من قتل المنفعة بالحقارات والتفاهات والاسفافات المتكاثفة بإسراف في عالمنا الثالث يكونون قد حققوا لانفسهم ضياكثيرا وردأوا عنهم غبناً كثيرا وهاذوان الكرامة مظاهيرا فلا عبد ولا كرامة ولا أمان ولا اضمان ولا أمل ولا نزر أو سرور في الارتباط بسلاسل من القهر والتحريل والتعوذة الى هوى نفوس متسلطة لا ترعوي ولا ترتدع ولا ترحم ولا تتقي أو تستحي.. ولكن ذلك يوم بعيد دونه عمر شديد وهلاك أكيد فالناس في عالمنا «كجلمود صخر حطه السيل من علِ» نحو قعر الوادي السحيق لا يوقفه شيء دون الهاوية. لا البراكماتية ولا اي مذهب آخر يروج في العالم المتقدم

يمكن ان يفيد في عالمنا نحن قبل ان يحدث تقدم حضاري في كل الوجهات ليتوفر مناخ يطلبه مذاهب من المذاهب التي تبغي لنفسها تربة تنمو فيها وسناخاً يوافق حياتها وهواء تتنفسه رئة نظيفة. والواقع هو ان انتحال بلد متأخر لاي اسلوب رابح في بلد متقدم لا يأتي بالنتيجة المرجوة أو المتوقعة لعدم وجود غذاء مساعد على الحياة يقتات الاسلوب المتحضر ولا يفيدنا التظاهر بالتعالي على الاساليب (المستوردة) فهي كالوسائل المشتهاة في تسهيل الصعب وتنعيم الخشن من مرافق حياتنا بالسيارة الفارهة والثلاجة الرخية السخية والكهيوترات الساحرة وبقية المستوردات المادية الراقية التي لا سبيل لها منا الا من كان من سكنة الغرف العالية و بأسعار لا تتحملها الا جيوب فعلها مضافاً اليها تشغيل المصنع وتنمية المال وعصرنة الزراعة وتكنفة الحرث والدرس والتذرية جميعا من عودة واحد فليس من حكمة ولا صلاحة ولا ضرورة في تنمية الغرور الوطني والقومي والديني بكيل اللعنة الى اساليب تفكيرهم و طرائق حياتهم ثم الغرق في أضغان مصنوعاتهم والتحصن بمقذوفاتهم والتزود بجبوباتهم مستعينين على بضاعاتهم لنا في البنوك. اقول هذا راجية بانفسنا وليس بكاءً على تعكر المزاج اللعين كعكاهم وقوارينهم، ولو تحريت لما وجدت واحداً مثلي يمقت الجانب العنيف والمتعالي والقصير النظر من سياساتهم أريكا بالذات وقد كفاني أن استشهد في ذلك بوزير من وزراء خارجيتهم هو (دين أچيسن) في كتابه Power and Diplomacy اذ يقول ان مشكلة الغرب هي في كون امريكا قوية وعنيفة وكون بريطانيا عاقلة ضعيفة وما أظن أحداً يشجب ويكره جورج بوش كما أفعل أنا لأسباب خاصة بي نابعة من سياساته. ولتتفق الى لا ابن حاكمي على العاطفة والنزوع الذاتي والانسياق مع الهوى وكثيرا اقول كلاما انتزعه مما اعتقد انه صميم الحق ويكون بذلك متحديا للشعور العام المخدوع فانت تقرأ لي كلاماً نشر في الصحة الدولية كريدة الثورة (اظنها كانت تصدر في لندن) اقول فيه ما معناه أن واجب الاديب والمفكر العربي ان يضارع شعبه بان استعادة سيناء لم تكن ممكنة الا بالطريقة التي استعيدت بها. وكتبت ضمن واحدة من سلسلة مقالات قصيرة لم تنشر وما أظنها ستنشر ان المارشال بيتان الفرنسي الذي صولح و جُرِّم في محاكمات نورمبرغ هو أكبر وطني فرنسي ولدته فرنسا في هذا العصر وان هدنته مع المانيا التي انقذت نصف مساحة فرنسا من الاحتلال عمل ضخم لم يكن يقوى عليه الا واحد من مرتبته ولو تابعتني فيما كتبته بشأنه بجاريتني لاسيما في في الجزء الخاص بمبلولته دونه ودخول الجيش الالماني برا الى حدود اسبانيا ولو وصلها لما امكن فرانكو ان يبقى على الحياد ولزاحف عليه لقتله ضباطه واذاً لسقطت جبل طارق وصار البحر المتوسط بحيرة محورية لمباغتة احتلال الالمان للساحل الفرنسي الجنوبي كله و بذلك يصبح الشمال الافريقي وبعده افريقيا كلها طعماً للراستيكا وفرق البانزر وهي حقيقة كانت ستجعل من المستحيل نزول الجيوش الحليفة سنة ١٩٤٢ في الجزائر وغيرها من الشمال الأفريقي فيمتنع بذلك غزوهم لصقلية وايطاليا ويلزم منه تغيير خططهم الحربية كلها بما فيها غزو نورماندي سنة ١٩٤٤.. الى آخر الكلام في هذه الحقائق والبديهيات. ومن غرائب المستنكرات ان يكون التحلل والتشرذم في فرنسا خلال الثلاثينات مبشرا بهزيمتها حتى قبل قيام الحرب فتدخل الحرب وتتهزم في معارك فرنسا سنة ١٩٤٠ بطرفة عين وتفكك قواها وقادتها كلهم فرار الارانب الى الخارج وتصبح فرنسا عارية مفضوحة في ضوء الشمس فلا يكون ذلك كله داعيا الى مساءلة من اسكوا زمام السلم والحرب حتى اذا نهض عملاق من تحت الانقاض فأنقذ ما يمكن بل ما لا يمكن انقاذه من بقايا وطن وبقايا اوامن وبقايا كيان وبقايا جنود واساطيل وكف يد الالمان عما قارة [illegible] فغير موازين الحرب وحوائجها حتى اذا تحققت المعجزة

اخذوا بخناق ضالقها وسرقوه وصتكوه ووضعوا النفسهم وصمة عار وخذلان وعبودان فواخجلتاه!
.. أما قلوب الغانيات فانها واخجلتا ..

ماياسى، يا عالم! مالكم كيف تحكمون؟ أنت معى يا دكتور سعدون ان " الدنيا دايرة مشال " بحسب تعبير أهل القاهرة؟

بعد الكلام المنقول من العمود الاول تأتى العبارة التالية فى العمود نفسه: " ان هذه الفلسفة بالطبع ومن خلال افكار ادم سميث فى (ثروة الأمم) تفلسف وجود يد خفية تنسق اعمال الأفراد فتلائم بينها وتجعلها غير متضاربة مما هو مفيد لى مفيد للمجتمع ومن مجموع الأعمال الناجحة المفيدة لى وللآخرين تتحقق مصلحة المجتمع ويحصل التقدم. هذا هو ملخص النظرية التى لا يصعب ابدا تشخيص المغالطة فيها والخطأ الفادح فيها ..."

أنا لم أقرأ كتاب ادم سميث ولا استطعت قصده من (يد خفية) ولكن اميل الى تفسيره أو تعليله بما قلته من استدعاء المصلحة العامة المشتركة لمجموع العاملين فى الاقتصاد والمعيشة أى يشيع الامان ويسود القانون ويختفى الاستغلال ويمتنع التحكم. وبفرض ان قصد آدم سميث شئ آخر يخفى على فلابد ان شيئا ما فى سياق ماقلته هو حصيلة كلامه والا من أين نأتى بتفسير هذا الفهم المفخم المذهل من قوة الاقتصاد فى الدول الآخذة بالاقتصاد المنفتح وللاسيما الاقتصاد الامريكى حتى ان الدولار أصبح اسطورة يثمن بها سعر غالب الأشياء بما فيها العقائر والمعائر؟ واعذرنى اذ استعين بمثال من غير السياسة والاقتصاد بدخلا الى عدم واقعيتنا فى تحديد الاشياء وتسميتها باسمائها فاننا نسمع طبلا وزمرا وتقديسا وتنويها بذكر عباس بن فرناس فننصبه اذا أردنا للطيران على حين لم يكن الا ضيالبا منقطعا عن الحقائق الفيزيائية فشل فى النزول بسلامة من ارتفاع همسة أو ستة امتار فلا هو طار ولا تصح نسبته الى الطيران مما قصد غير الهبوط فأخفق فيه ولربما كانه اذا استعان بقماش قوى النسج خفيف الوزن بدلا من الريش استطاع ان يهبط بضعف سليم ثم كرر اللعبة حتى شيع منها كما يشيع صاحب طيارة الورق.. وأنشئ كما هو ظليقا باسم الرائد فى فن الطيران رغم عدم محاولته الفعلية فقد توسل بالاسباب الدالة على فهمه لطبيعة الطيران ولكنا لانذكر اسمه لانه لايفيدنا فى الأعلام ثم نجد فى زماننا ان الامريكيان لابورك فى غرورهم لم أول من انزل انسانا على سطح القمر ولمسا من طريقة مرورهم بأم المعارك وأبيحا، لا ساعات فى ليلها تهم، يزاولون شيئا يشبه عمل من يدير المفاتيح والازرار فى لوحة التلفونات وركب الرعب الرهيب اذ تبينوا تخلف سلاحهم فهل يفيدنى ان اغض عينى عن الحقيقة وتسلية ذاتى باستغراء الفاظ فيهم وتفشى الفقر فيما لا اورد من مرافق مجتمعهم وظلمهم السود والهنود الحمر وعالمنا الثالث له نصيب يفرق نصيبه جميع اصحاب الانصبة فى اى من هذه الخطوب فالفقر لله الحمد والاحمد على مكروه سواه تراث ازلى لصيق بنا لم يفد فى نزعه حتى النفط ولا يرجد مايبشر بزواله فى مستقبل منظور. و تذابح أبناء الوطن الواحد وتحارب شعوبه المتجاورة عار يبعث على القرف وكفاك ان عدد المقتولين من المقاومة الفلسطينية عنصر واحد من سورية يفوق عدد من قتل منهم بيد اليهود و كفاك ان ايلول الأسود لطخة فى جباه من هموا بقتل الملك حسين وسأقوله حتى بفرض ان الملك حسين انقلب على العراق، وكفاك بعد ذلك ان مظاهرة تقوم بغير رضا السلطة فى اى من بلدان العالم الثالث تكلف من الضحايا اضعاف ماتكلفه حرب الحجارة فى فلسطين المحتلة. ألا فاحسب لنفسك كم من دم الاخوان المواطنين سفك بيد مواطنيهم أو مجاوريهم من دين واحد منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ و ١٤ تموز ١٩٥٨ والتفت الى ضحايا عيدى أيين و (حرس) الصومال

و (ملائكة الرحمة الأمريكيين) في الحبشة والى النزهة التي مارسها شيوعيو عدن واذكر حال لبنان واذكر واذكر كما اذكر انا فركبني الفجيعة حتى تشل اهاسيسي واتواري من المشهد بمثل شعور الخزي والخجل يتسيني حال السود والحمر في امريكا . ام يقال ان الذنب في ذلك يرتد على امريكا والدول الصناعية الكبرى ؟ فبافتراض ان ذلك صحيح جملة وتفصيلا وبتجاوز لوم الذات في سرعة استجابتنا الى صدم الذات فاني بعد المقارنات والمقاييسات أصل الى ازدراء الدول القوية اذا استنكفت من التلاعب بنا طالما اي من حكام العالم الثالث لا يتورع عن القيام بشر الاعمال الوحشية مع شعبه وجيرانه ما استطاع الى ذلك سبيلا بتوسم فيغ منفعة مادية أو انتفاشا بزهو الانتصار . وتدلهم الصورة اكثر فأكثر في نظري مع اقامة فكري في شلل الارادة بل فقدانها عند شعوب العالم الثالث فتتفاقد كضحايا العبد الى سكين جلادها اجنبيا كان ذلك الجلاد أم وطنيا . واقول (شعوب العالم الثالث) جريا مع الاعتياد والا فان المجموعات البشرية التي تنقلب الى قطعان بلا ارادة هي مجموعات بشرية وليست شعوبا فالشعوب لها خصائص ومقاييس اجتماعية أظهرها اثنتان : الشعور بالواجب والشعور بالاستحقاق وقدمت الشعور بالواجب لانه إذا تحقق صار حق الآخرين تحصيل حاصل لانه ينطوي في قيام الناس بواجباتهم . أما ان للذين الشعورين من الاكتساب المتعسر فذلك لا يغير من الواقع شيئا فلا أمل للناس في الامان والضمان حتى يتحقق هذان المتعسران ولا يترك الحاكم والقوي عموما طمعه وشهوته الى اليوم الذي يجد فيه الناس يمتنعون على شهواته

حكاية السود والهنود الحمر ليست شرقية ولا سلفية ولا شرقية وهي الى حد ما من جنس الحكايات الرائجة في عالمنا الثالث ولكن لها تفاصيل لا يستغني عنها ولا لاتها .

الهنود الحمر ينتصب فوقهم علامة استفهام لم أجد أحداً أجابني عليها فالشهود أن الهنود الحمر في امريكا الجنوبية والوسطى وحتى المكسيك كانت لهم مدن وحكومات ونظام حتى ان مرفق البريد الرسمي عند الـ (انكا Incas - اعترف أكون مخطئا في حروفه) بما صاحبه من وسيلة الاشرطة المعقدة في نقل الخبر شيء مذهل .. مدينة كوزكو وكوهيا بابير وغيرهما كانت مدناً بحق وحقيق . وقرأت في مقابين احد الكتب ، أظنه Gods Graves and Scholars ، ان التقويم السنوي للأزتيكس كان ادق من التقويم الكريكوري - ثم انهم اختلطوا مع الاوروبيين بالمعاشرة والمزاوجة حتى نشأ منهم خلاسيون يسمونهم Mestizo ونسبتهم الى جميع السكان عالية . لكن الهنود الحمر الى شمال المكسيك فيما هو اليوم U.S.A وكندا لم يتجاوزوا طور القبيلة ولم ينشئوا مدنا أو حكومات رغم وفرة الأسباب للازدهار والتقدم ولم يختلطوا بالأوروبيين . ولربما كانت القوة المستعملة مع هنود الازتيكس والانكاس اشد مما استعمل مع هنود الشمال ولكن النتيجة كانت عكس ما كان ينتظر من حيث الاختلاط والتزاوج .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الذي حصل من المواجهات والمعارك في الأمريكتين بين الاوروبيين والهنود كان من قبيل ما يحدث بين المهاجرين والمقيمين من قبائل الهنيا القديمة وشعوبها اي ان غالبيتها ، لا سيما في القسم الشمالي من امريكا الشمالية ، كانت تحدث بلا تدخل حكومي اذ لم توجد (في الشمال) حكومة هندية ولا ترسخت في كل انحاء الأمريكتين حكومة أوروبية في وقت قريب . واذا من باب المقارنة ان الغزوات التي كانت تحدث بين القبائل العربية قبل الاسلام اتخذت لاول مرة شكلا منظما بعد قيام الدولة الاسلامية ليس فقط في تجييش الجيوش لمهاجمة الروم والفرس بل حتى في المواجهات التي حدثت ببدر وحنين وأحد مع المرتدين واليهود . فاذا صعدنا الى الألف الثاني قبل الميلاد وما قبله وجدت العرب كغيرهم من

القبائل المترحلة (مثل Indo-European) تغزو الديار بلا تدبير أو منهاج أو هدف بعيد و تجد الاشوريين متفايقين من العرب وما يكن بدرجة أقل من ضيقهم بالميديين في فتح الالف الاول قبل الميلاد حتى سقوط دولتهم سنة ٦١٢ ق.م. الخلاصة ان محنة الهنود الحمر ليست بدعة امريكية أو غزو يلية بل ان حروب القبائل الهندية الحمر فيما بينها واستعمار بعضهم لبعض قديمة وسابقة على اكتشاف امريكا ومنزوع الناس اليها من اوربا اولا ومن غيرها فيما بعد. و الملحوظ ايضا ان صلة الاوربيين بغير الهنود الحمر من سكان الجزر في المحيط الاطلسي والهادي لم تكن مصحوبة بتلك القسوة رغم ان العنصر الغازي هو واحد في الحالتين. والظاهر هو اعتدال رد الفعل لدى سكان الجزر من إقبال الاوربيين عليهم وقد يكون لاسباب اخرى لم التق بها في قراءاتي. ويهمايكن الكلام فلا بد من قولة الحق فليس بعد الحق الا الضلال: قرأت فيما قرأت من أنباء فتوح شمال افريقيا ان موسى بن نصير رجع في احدى غزواته بسبعين الف أنثى من السبي تقع اعمارهن بين ١٧ و ٤٠ سنة - لم أتذكر - فبدا لي ان ليبيا في تلك الايام لم تكن تحوي أكثر من سبعين الف امرأة يشتهيها الفاتح أو يتاجر بهن التجار فياترى ماهو المتبقى من السكان لدعوتهم الى دين الحق؟ ونقرأ فيما نقرأ ان اعتداء ابي لؤلؤة على حياة الخليفة عمر كان ثأرا منه لفتح نهاوند الذي تم حربا فقتل من قتل من سكانها وسيق الباقون سبيا الى المدينة وكان ابو لؤلؤة نهاوندي اسره الروم في بعض حروبهم ثم باعوه لبعض العرب. فأنت ترى ان الفتوح والغزوات وحياة التنقل البدوي سواء في الدنيا القديمة أو الحديثة كلها دعوة شنيعة من الشفارت لضاوضا وباختلاف الاسباب من اكتساح الى اكتساح. وفي سؤاله اتوجه به الى اي عربي يقرأ هذه السطور وهو انه بافتراض ان عربيا اكتشف امريكا فهاجر اليها العرب فهل كان منتظرا منهم ان يفعلوا غير ما فعلوه في فارس والاندلس وافريقيا وما وراء النهر من فرض العقيدة أو الجزية مضافا اليهما هيمنة محكمة لا تقلت أو تترك احتمالا للتمرد فاذا تمردوا فنا عساهم كانوا يفعلون بهم الا القمع. واذا كان الفارسي الزراد شتي عويص معاملة اهل الكتاب فيما عدا الزواج من نسائه فما عسى ان يكون موقف العربي المسلم الموحد من اهل امريكا الوثنيين وقد ذكرت لنا الكتب ان قسوة الاسبان مع الازتيكس كانت في أحد اسبابها تعود الى ان الصنم المعبود من الازتيكس كان شبيها بالشيطان في نظر الاوربي؟ قرأت منذ أيام لكاتب عربي انه بعد نزوح العرب من الاندلس غلبوا البربر - اي اصحاب الارض الاصليون - مع ان هؤلاء اولى بديارهم وهم اليوم اكثر راحة ودعة من العرب وعامة المسلمين. على اي حال ان المرجوع الى الماضي والاحتكام الى أحداثه في ميدان الضراوة والقهر يأتينا بنتيجة واحدة هي الخراب و ضياع الانسانية وابتعاد الامل في السلام والرخاء وان مقدار العنف يتناسب مع مقدار التخلف. وبصدد استعمار الامريكتين لابد من الاشارة الى حقيقة لا يجوز اغفالها وهي ان الانجليز لم ينووا البقاء في اي بلد هو بنظرهم جزء من الدنيا المتحضرة فتركوا الهند والعراق ومصر والسودان وكل مستعمراتهم التي هي من هذا القبيل ولكنهم بقوا حيث كانت الارض مسكونة بنظرهم من قبل غير المتحضرين فمكثوا في امريكا واستراليا ونيوزيلنده واجزاء من افريقيا. ومن ملاحظات كراهام گرين في ثنايا رواياته له ان الانجليزي لا يختلط بأهل البلد الذي يستعمره أو يحتله وانما يعيش في عزلة كساكن جزيرة منقطعة عما حولها على عكس الفرنسي في حبه للمخالطة والمعايشة. ومن امثلة هذه السجية الفرنسية وجود اكثر من مليون مستوطن فرنسي في الجزائر ولولا اصرار الجزائر اليجول لتعذر حل مشكلة الجزائر لاسباب كثيرة منها مشكلة المستوطنين. ومن الملحوظ ان الفتوح كانت تقع قديما بحدف احتلال الارض المأهولة سواء كان الهدف دينيا أو دنيويا ويستوي في هذا العرب و العجم والديلم فما أحد منهم كان يتكلف العبث باحتلال أرض بلا بشر.

بصدد مصير الهنود الحمر في المستوطنات ، لست متيقنا ما اذا كان ذلك برغبة الهنود ام برغبة الحكومات أم من حكم الضرورات . ثم ان المجتمعات الحديثة تعتمد بسلاة الحيوانات وتبذل الجهد والمال لمنع انقراض اجناسها المهددة فهل تتفاق ضد طبعها في موضوع الهنود الحمر؟ على اي حال ان هذه المستوطنات اصبحت مثلا يحتذى في كثير من انحاء العالم الثالث باحداث ماسيس (مجمعات) ولعراقنا الحبيب نصيب غير منكور من ذلك . والأعذار في هذا الصدد تختلف ولكن النتيجة واحدة .

أما مأساة السود فهي ذات عرض وطول أكثر اتساعا من مأساة الهنود الحمر .

نشأت مشكلة السود في الولايات المتحدة كما نشأت في العهد العباسي متمثلة في ثورة الزنج بفضل النخاسين المسلمين الذين كانوا يصطادون أو يبتاعون السود ويبيعونهم للناس حيثما كانوا محتاجين الى خدمة رخيصة . والملحوظ ان اوربا خلت من العبيد السود لاستقرارها الاجتماعي والقانوني على نبذ مبدأ الاسترقاق . والروايات التاريخية ما بين صريحة وملمحة تقول ان ثورة بابك الخرمي كانت من حيث المنشأ حركة ضد استثمار الارض ما قبل الحكام الاقوياء باستعمال العبيد في الزراعة . ومن الملاحظات الكبيرة بالاعتبار ان السود في امريكا تحرروا بفضل البيض الشماليين لا بحركة ذاتية من السود وما من شك في ان المنافاة قائمة بين سواد الناس من البيض والسود وهي مائلة الى الخفة وتعلقت في ذلك حديثا ملحوظة .

اذكر شيئا ما قرأته في كتاب Inside Africa لكنتر حول جدار اللون القائم بين البيض والسود في افريقيا فهو يقول انه كان حاضرا في صفقة ساهرة بالزبرجد - كما اتذكر - دار الحديث حول هذا الجدار فقالت سيدة اوروبية في ايمان وحماس ان الشكل ليس Colourbar واغا هو W.C. bar فالاوروبي يستعمله بطريقته المألوفة والهندي يستعمله لا بالجلوس عليه واغا بالتقرفص فوقه وهو لا يسب حذاءه أما الافريقي فهو يتمرغ في ارض الغرفة . ولهذا الكلام جانب كبير من الصحة ولا يفيد انكاره شيئا فقد عاشرت الفلاح الكردي لأكثر من عشرين سنة وآكلته وصاحبته وما تقززت منه ولكني واثق ان سيادتك و الأكثرية الساحقة من منتهي المدن لا تحتملون الفلاح في بيوتكم العصرية ليس من باب التعالي واغا لاختلاف مستوى السلوك ولعدم اعتياد الفلاح طريقة اهل المدن في المعيشة . رأيت الفلاح في بيتي بكوسيتج يفرك السيجارة على الأرض ليطفئها والنفاضة الى جانبه ورأيته لا يتنع من البصاق رغم ان البصاق لا يجف سريعا على غير التراب ورأيته وتحملته في امور اخرى كثيرة أعفيك من سماعها - اهضم كسر المغسل وهو يغسل فيه قدمه للوضوء ولا يقدر الا المجرب كم يكلف اعادة نصب المغسل وكيف ينتشر ماء الكنيفة المنكرة مع المغسل

عندما اتخذت الاحتياطات لانواء اهل العرق التي تغمرها مياه سد دوكان في اواخر الخمسينات نصحت اصحاب الشأن ان يتركوا ارض العرق والأفنية بلا رصف ولا اسمنت لأن التراب قادر على امتصاص الطراوة من الفضلات الحيوانية والبشرية التي لا تخلو منها بيت فلاح فلم يستجيبوا : ولكن الفلاحين بنوا الانفاس وبهائمهم وداجنهم غرفا بأرضية ترابية ونفع ما فعلوا . أنا لا افرق بين الابيض والأسود والأسمر والأصفر ولا بين المسكين والقوي واعتبر البشر سواسية و أدين اي تمييز فيه تعال سواء كان من الابيض للأسود أو من الحزبي لغير الحزبي أو من الوزير للفراش ولكن سلوكي الذي هو ترجمة عملية لأيماني وعقيدتي لا يحمل الاشكال ويظل القوي يتعالى على الضعيف ويتمايز

الناس بالمال والمركز الوظيفي والصفات الجسدية والعقلية وينتحلون الانتساب الى الاولياء والانبياء والخلفاء وقد رأينا في صدر الاسلام كيف ان المهاجرين أصروا على حصر الخلافة بعد وفاة النبي بقريش ثم كانت شيعة الامام علي ان خصوا (اهل البيت) بالامامة ومع هذا لم يجعل الاعجمي غير كفؤ للزواج من العربية رغم آية (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وشاع في الاسلام ان لسان اهل الجنة عربي مع ان اللسان العربي لم يرج ويغلب على ثقافة الشعوب الا ما كان لسانها من عائلة العربية فلا الفرس ولا الترك ولا الكرد ولا الديلم والهند وغيرهم من شعوب اوربا وآسيا استطاعوا تبديل لسانهم بالعربية كما استطاع البربر والنوبة والقبطيون والآراميون رغم ان الطائفة الأولى من الشعوب المذكورة رسخت في الاسلام وهذه الاسلام باتخاذه بديلاً من دينها وكان لبعض تلك الشعوب ودينها الكرد نصيب ملحوظ في محاربة الصليبيين اكثر مما نصيب العرب في اعمال كثيرة حتى ان خليفة بغداد لم يؤازر صلاح الدين الايوبي بدينار واحد أو بجندي واحد. الخلاصة ان مكانة العبيد عامة والسود منهم خاصة كانت تحكم الأعراف والمساتير الاجتماعية وحكم نقص أهلية العبيد منخفضة ومضنية ومشار الاشكال عبر التاريخ. فالمتبنى ما وجد عاراً يعيب به كما فخر الأحنفي اكثر من كونه بالأصل عبداً أسود. فاذا كان سواد الجلد أثار في امريكا مشكلة اجتماعية وقانونية فلا يفوتنا ان نلاحظ فرع علامتين بارزتين: اولاهما، كما قلت، ان النخاسة هي المسئولة الأولى عن قيام المشكلة. والثانية هي ان المسألة صارت هناك مشكلة ولم تصر عندنا مشكلة رغم قدم عبودية السود في العالم القديم وذلك بسبب ان المعايير فيها هو صحيح وخطأ اجتماعياً متفاوتة في العالمين فقد وجدنا البيض في الشمال يرفعون شعار تحرير العبيد في الجنوب بالولايات المتحدة على حين وجدنا البيض في العهد العباسي يسحقون ثورة الزنج ويستأصلونها حتى لم تقم لها قائمة على حين استمرت مشكلة السود في الولايات المتحدة رغم تقدم شأنهم و شيوع مشاركتهم في الحياة العامة وبروز المشاهير بينهم في الفنون والرياضات والدين و الوظائف فالعقدة عندهم تستمد مقومات دوامها من جذرها التاريخي المتمثل في قيام مصالح الجنوبيين منذ قرون على مبدأ التفاوت وبقاء الرق ومن انفتاح المجال أمام السود وغير السود من كل نحلة وملة حتى الشذوذ الجنسي واباحة المخدرات كي تعبر عن ذاتها ولو بمنطق مائل على حين نجد في العالم القديم واقصد به اسيا وافريقيا، انه حتى الدعوة القائمة على اساس العقيدة الاسلامية تلقى ردود فعل شديدة من السلطات اذا آنست منها قوة فالديمقراطية والعقيدة الدينية والاداء الاقتصادي والقضاء بانواعها ومنها المرحية كلها محظورات عندنا اذا برزت بشكل يبعث الخوف من اختلال موازين القوى. لقد اغتيل زعيم سياسي ديني اسود في امريكا فقامت له الدنيا ولم تقعد وارتفع ذكره باضعاف مرة (اقرأ ستة) فهو نبراس يهتدى به على حين اعدمت السلطة في مصر (سيد قطب) وهو معتبر بمثابة (غزالي صغير) على أيامنا فلم يحدث شئ وبر اعدامه بسلام ولم يحدث اشكالا كما حدث في منفى الذبح ثلاثة ايام بدل يومين في الاسبوع .. من نحو عشرين سنة قتل عريف في الجيش بجنوب السودان فتم تشييط المدينة (مأظنها جوبا) مع النجر باشعال النار في بيوت المعروفة بالقش فقتل من الأهالي ألف وخمسمائة انسان على ما قرأنا من اخبارها في الصحافة وسمعناه من الاذاعات [لكي اتذكر] فما تحرك عرق واحد بالرفض والاستنكار في دنيانا العريضة المسلمة بل تم الترحيب بالحادثة وبكل ما من شأنه قمع حركة السود هناك من قبل دعاة الوحدة العربية فاين الذرائعية من هذا يا سيد ؟

في ليلة باذخ تموز سنة ١٩٦٩ كنا، نحن اعضاء ورئيس الوفد العراقي المدعو الى المشاركة في

اعياد ٢٣ يوليه ، فى ضيافة الرئيس جمال عبدالناصر ببيته الحكومى فى المعمورة بالأسكندرية قضينا معه وقتا ممتعا امتد حتى ساعات من الثانية مساء حتى الواحدة بعد نصف الليل . وكان قد دعا نحو ألف ضيف من الافريقيين فذكر سبب اهتمامه بهم داعيا وزائراً انه يحاول عن طريق تعريفهم بالمسلمين محو الصورة الرسمية فى ذهن أولائك عن العرب والمسلمين أنهم نخاسون كانوا عبر القرون يصطادونه ويبيعون السود .

فى خواتيم العمود الأول و بدايات العمود الثانى من مقالك كلام مشحون بالعاطفة النبيلة التى صحت ان تكون بمزاجها السياسى [الذرائعى] وسيلة لقتل عصفورين بحجر واحد فانك باتهامك الخطيرة لشيطنة الرأسمالية الأمريكية فى اغناء الغنى وافقار الفقير وتكالب السود والهنود واشباه الجذرات مضافاً اليه سوء الأحوال فى المستعمرات ومعاملة اليهود فى فلسطين أذهبت امريكا من نطاق حضارة العصر فى غير جانبها المادى النفعى المخصوص بقوارينها . هذا عصفور واحد . ومن باب التداعى العكسى ومفهوم المخالفة اذهبت بذلك عن مرمى اى من تلك الجرائم التى يمكن ان تكون مشتركة بين امريكا وغيرها من الأمم . وهذا عصفور ثان . وقد تأكد وتكاثف لهذا المعنى الثانى وما قبله من العصفور الأول بطرد لاحقة الى اواخر العمود الثانى حيث ينهض قياس النقيضين بتصوير ورثة الاديان السماوية صاحبة عقيدة ان (الحق حق والباطل باطل) وتخصيص ورثة الرأسمالية بفكرة ان القوة - أو ما فى معناها - هى الحق فالباطل القوى حق والحق الضعيف باطل .

هاهنا يا سيدى يكاد القلم يجف فى يدى فلا ادرى كيف استطعت ان تحفظه واول كلمة يمكن ان يقولها القلم هى ان الاديان السماوية التى يحسب لها حساب هى اليهودية والمسيحية و الاسلام ، و أصل الثلاثة هو التوراة اليهودية وخصوم العرب والاسلام فى منطلقك هم اليهود والمسيحيون فلا خصومة مع اليابان والصين و اغلب وثنيى لهذه الدنيا ، ولولا ان الروس وما فى حكمهم رجعوا عن الالحاد الشيوعى الى المسيحية لقلنا بعدم وجود خصومة معهم ايضا فكيف تيأتى لى بادئ ذى بدأ [ام ذى بداء فى رأى البعض] ان ورثة الاديان السماوية مجبورون على شجب الحق بالحق فهو شئ واحد فى نظر المسلمين واليهود على حين لم يكن العرب المسلمون على عداوة واضحة مع البراكماتية بل لم يصبح شقيقهم معادين للبراكماتية الأمريكية الا لوجود صداقة بينها وبين اليهود ؟ واين الحد المشترك بين المسلمين والمسيحيين فيما هو (حق) وقد استهل الاسلام فتوحه بذلك اكبر ابراطوريتين فى الدنيا احداهما مسيحية وثنا ها بفتح مصر القبطية المسيحية وما جاورها من ديار فأصل نفسه محلها ثم أصل اللسان والعنصر العربيين محل اللسان والعنصر القبطى حتى لم يعد له خطر ؟ وانتشر الاسلام بالقوة القاهرة وبرباط الخيل (ترهبون بها عدو الله وعدوكم) حتى فتحوا الشمال الأفريقى وعبروا منه الى اندلس المسيحية وكادوا يفتحون بعدها فرنسا المسيحية لولا نكسة كالتى حدثت فى (أحد) نتيجة الأنشغال بالأسلاب ولو فتحت فرنسا لكان مصير اوربا غير مصيرها فى اقوى الاحتمالات .. وجاءت الحروب الصليبية بعرضها الطويل فى اعقاب الخصومة المستمرة بين المسلمين من اوربيين وعبرانيين وبين البيزنطيين وبعدها كانت الفتوحات العثمانية قروناً حتى انتهت بالحرب العظمى الأولى ومن يومها قام الشد والجذب بين الشرق الاسلامى والاستعمار الغربى المسيحى ولم ينته حتى يومنا هذا !

فأى (حق) هذا الذى ورثناه أو ورثوه من الاديان السماوية لتتميزوا به عن الرأسمالية الامريكية المسيحية ؟ وعن الرأسمالية اليهودية ؟

على ان الاشكال لا ينحصر فى الصورة المتقدمة فان (الحق) لم يستكمل اى شكل متفق عليه فى اى من الاديان بما كان بين أطراف كل دين من خصومات وحروب هى شر من اى باطل بلاحرب . منذ الفتنة الكبرى بعصر الخليفة الثالث لم يهدأ للمسلمين بال بسبب النزاعات العقائدية وما نشأ حولها من المطامح الشخصية انجذبت اليها الناس وتحاربت من أجلها فتأريخ المسلمين

سجل متصل من الغارات والاكتساحات والاستباحات اوقعها المسلم بالمسلم . والحال بين المسيحيين لم يكن أحسن حالا منه بين المسلمين حتى ان الحرب العظمى الثانية انبعثت اول ما انبعثت بين أطراف مسيحية واستمرت كذلك فلم يدخل فيها الاسلام طرفاً ثالثاً .. ولنترك ذلك كله كي اتوجه بسؤال بسيط يجيب عليه اي معتنٍ بالحق : ماهو الارث المنتقل من الاديان السماوية ليكون (حقا) يقيم الحضرة الساخنة بين العراق وبين كل من ايران وتركيا وسوريا ومصر والسعودية والامارات الخليج ؟ وتركت ذكر اسرائيل حتى لا أنبه حساسيات مالها نهاية معوان اليهودية منبع الاديان السماوية ولا تنفصل من المسألة لولا فاصل السياسة

حاولت أن أجد صيغة يستقيم فيها مدلول " ورثة الاديان السماوية " على وجه مقنع فتوسلت بالتجريد لأقول ان المقصود بالارث السماوي هو الحق الخالص الذي يجب أن نفهمه من وحي يفيض من الخالق وليس ما يتفرق فيه الناس بالاجتهاد الفاسد أو الهوى الفاتر أو عمى القلوب والأبصار ولكن مسعاي خاب قبل أن أوغل فيه لان هذا (الارث) المجرد لا يرسو في مرفأ احد على الأطلاق بل يبقى طافيا ويظل ملكاً لكل الناس بالادعاء و خارج ملك كل الناس بما هو واقع وقصارى من العمل أن يأول الى مادة اعلامية يستطيع الكل التلويح بها في وجه الكل أو يستند اليه مالك الرقاب في اجراء ما يراه أقرب الى مصلحته وهذا ما فعله أصحاب الشأن في المصالح الكبيرة عبر التاريخ بل ان اليهود أول ما تشكل في دعاواه (بين النيل والفرات) الى تراثه السماوي، والمسيحيون باستنادهم الى العهد القديم والجديد يرون أنفسهم اصحاب حق في تجنب الاسلام الذي هو بنظرهم دخيل على (السماء) كما لها ثية في نظر الاسلام . ثم ماذا فعل المسلمون بهذا الارث السماوي في واقع العمل ؟ ألم يكن العباسيون وكلاء عن آل البيت في دعوى الخلافة حتى اذا حازوها كانوا أشد عليهم من الأمويين بسبب طول مدة حكمهم فتقول الروايات التاريخية ان رئيس الطالبيين رفض الوظيفة من المستعصم ولكنه قبلها من صاحبه لاكو ! ماذا فعل المعتصم بالقائد الذي قضى على ثورة الخرمي ؟ آخذه بأمور منها انه غير مخنوث وهل أصبح غير مخنوث فجأة بعد عمر طويل عريق في خدمة العباسيين ؟ وماظنك بالمنتهى الى العترة النبوية حين يصل الى القوة والجاه ويتوالى نسله في ذلك فما عساه ان يكون فاعلا بالناس ؟ ألم تركيف فعل وكيل الأحكام الغائب بالناس يوم دانت له ايران ؟ فانه على قدر ما تشتد الدعوى في الاستناد الى (الارث) السماوي يتسع المجال لزيادة الطغيان بما في هذا (الارث) من قدسية قادرة على تنزيه الذات وتحوين الخصوم ولسنا نضن وجود علي و عمر بن عبد العزيز و غاندي من القديسين الحقيقيين في الحكم والسلطان فهي نتوقع زيادة الخير بزيادة الاستطاعة ! ولنا ان نأخذ من (الثوريين) مثالا لما تنبئه دعوى الثورية من العزة بالاثم في نفوس عاملين وانزل في ذلك من الثورة الفرنسية عبر الثورات بعدها حتى يومنا الراهن واذكر النذل روبسبير في مساومته سيدة جميلة على شرفها فلما استعفت عليه لفق لها تهمة اسلمتها الى المقصلة لعنة الله ولعنة التاريخ عليه وعلى أمثاله حتى أبد الآبدين . وفي كلام عن الثورة ورد في كتابي الموسوم (بين هموم الحياة) الصادر سنة ١٩٨٨ وأهم هذه السطور منقولة من الصفحة ١٥٦ فارجع اليها وقتك وصدرك لقراءتها ، اصف فيها المناضل الثوري كما يلي : ((... فأقول له وللجميع من على شاكلته في عالمنا الثالث انى اخاف احتمال وصولهم الى الحكم بمثل البقين الذي بنيت عليه خوفي وكراهيتي وتقززي من حكم عيدي أمين وبوكاسا وستالين وهتلر وكل الطغاة القتلة على مدى التاريخ فليس حملة السكاكين والبنادق من مناضلي عالمنا في خنادق المقاومة اللاعفاريت صغارا ستأخذ دورها في ركوب المتون وكسر الاعناق وقطع الاعراق وحرق الورود والأوراق: انهم قد يكونون مدافعين عن أنبل القضايا ولكن بروح الذئب الطامع في القطيع وقد يكونون أنبل الناس في الجود بالروح ولكن في تربص قاطع الطريق بالقافلة . انهم في الجملة صور مأساوية للمستبدين ~~في مستهل حكم~~ الذين استأثروا بالحكم فاذا صارت صورا موجبة بدت على حقيقتها المكفهرة في دست الحكم ذلك ان اعنفهم افلاقا واوطأهم أكنافا واقربهم الى المرحمة تناهوا من خلال ايمانهم المطلق بالذات الى الادانة المطلقة لذوات الآخرين فليس في قاموسهم السياسي حيز للحرية والأختيار الا ان تكون

حرية تأليههم واختيار تقديسهم والتسليم بما يؤمنون ..»

أفتح عيني على عراق اليوم بعد اربع وثلاثين سنة منذ تموز ١٩٥٨ من انحسار رهيبة الانجليز عنه وتضاعف دخله من النفط عشرات المرات واقارن بينه وبين ذرائعية الرأسمال الاريكي الملعون وقداسة ارث العراق السامري وعدالة اشتراكيته فماذا ارى ؟ هل تحتمل صراحتي ؟ ولم لا ، انها ليست للنشر ! اما الارث السامري فقد تكلمنا فيه بجزء يسير من مقباته ليغنينا عن كثيرها. أما الاشتراكية فان اكتفي فيها باثنتين من علاماتها المميزة : أولاهما وهي أخفهما ، اتساع الشقة بين الغني والفقير الى حد لم يوجد مثله في ماضي زماننا وازدياد الملايينيرية على طريق الكرام والاجرام بشكل مذهل حتى كأن ثورة خفية تضخ في بنيتنا مقادير من الفساد تزيدها كفاية لتحل محل غيرها في كل شيء. عراة مفاليس أصبحوا يملكون قصورا خيالية وسيارات اسطورية ومتعا لم توجد في الأحلام . قرأنا في صحيفة رسمية أن احدهم ألقى على قدمي (فنانة !) في حفلة عامة بصك من مليون دينار أكريها به وهزم فيه منافسيه في تكريم الخائنة.. مليون دينار على حذاء موسى جبارا بعد ايام المعارك وانتشاء المنتصرين وعارضي الخدمات من تحت صنف لقاء اللقمة.. يدفعون باسم ويطلبون ما يقرأون به في رمضان فأقطع من لحمتي حتى لا اخيب فيهم ولا يخيبوا في رحمة ربهم ! يتخذ احدهم كفناً من النفط في بعض اجزاء هذا الوطن يرد به الموت عن وليده في زمهرير الشتاء !! انا اعلم كعالمك ان الاشتراكية المفتعلة بفرضها من أعلى كارثة اجتماعية اقتصادية في حد ذاتها ولكنها مهما بلغت من السوء لا تستطيع ان تكون مميتة اذا لم تقاوم سوئها يجري بشكل مألوف كالمرض الذي يتزايد مع العمر حتى أرذله . لكن اذا كانت حالات المغنية والفقر الفاحش مجاورة للبذخ الرذيلي و مشفوعة بمليون دينار على حذاء موسى معلناً مباركاً فقد خرج ذلك عن أن يكون مندرجا تحت اي وصف أو تفسير يتكلفه مصور كما او سعدون حمادي أو حتى كيسنجر السيئ الصيت ! يخيل الي اني في ساعتنا لعبة حرية تجري العقول فيها : قوام اللعبة هو الاعلان عن هدف من طموح نعتبره من اقانيم وجودنا ومن مفاخر حضارتنا ثم نعمل شيئا هو النقيض المطلق لما أعلنا عنه بالجد الكامل وبلا مواربة أو اعتذار ولينفلق من ينفلق غيظاً.. لقد حققنا المستحيل في بعض سنوات برنامج ايران اذ جعلنا طلابنا يتعدون السقوط في الامتحان الرياضي للخلاص من مآسي النجاح فيكتشف المشرفون عليهم صيلتهم للذة ويطلقون مفعولها بجيل مستخرجة من جراب الحاوي. وتحقق المستحيل في صورة عملتنا التي صارت حيرة كبرى ومشكلة تتباكى على أيام السخرة ! فلم تكن الفلوس قط مظنة حيرة في تدبير المعيشة ولكنها الآن فينا مشكلة الشاكل : محكمة جرّمت شخصاً كان ترفض قبول تقدمه فئة ٥٠ دينارا و ٥٠ دينارا فغرمته ٨٠ ديناراً حتى اذا راح يدفع الغرامة رفضت الخزينة قبولها لانها من فئة ٥٠ و ٥٠ دينارا - في نقاط السيطرة بالطرق الخارجية يأخذون من المسافرين العشرة والخمسة دنانير ويعوضونهم بنقد من فئات لا تروج الا بصعوبة متعسرة أو بكثير من التنزيل [فئة ١٠٠ دينار تصرف بخمسة وسبعين دينارا] أو لا تروج نهائيا .. ومن اولئك المسيطرين (ابناء حلال) يأخذون الفلوس حلالا بلا مقابل فيخلص صاحبها من وجع الرأس الاكيد .. آخر رحلت فيها من اربيل الى بغداد عبر الموصل لم يقبل سائق السيارة في اربيل الا عملة من عشرة وخمسة دنانير .. والسائق من الموصل الى بغداد والكوردي يعرفني رضي بتنصيف الأجرة : ٧٥ ديناراً من العملة الرائجة و ٧٥ ديناراً من العملة الـ (مش ولابد.. اي من فئة ٥٠ دينارا) وتلك هوامش وخمنات واقاويل من شاكلتنا الاقتصادية بعضها نابع من صعوبة الحال بعد المعارك - وقبلها - وبعضها نابع أصلا من الاشتراكية المفتعلة وبعضها من طبائع التخلف القادر على وضع مئة مفسدة في بطن واحدة ولا يمكن ان يحدث مثلها في (مجتمع) الرأسمالية الامريكية البالغة أو أية رأسمالية حقيقية لها ركائزها وابنيتها التحتية في اقتصاديات بلدانها. ان اقتصادنا يا سيدي هو في حالته الحاضرة (اقتصاد الجريمة) من جانبه الكبير والخطير ولا يمكن ارتباطه بالقوانين الاقتصادية وانظمتها المشروحة في الكتب ولا صلة له بالكلاشن الذكية من مثل (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة) فقد انقلبت عندنا فصارت الجيدة تطرد الرديئة ، و اعرف عوائل كثيرة صارت تبيع مصوغاتها تعيش منها شهرا بعد شهر على مرأى مليون دينار في حذاء موسى. المرتشون والمزورون والمهربون واللصوص صاروا طبقة فوق الطبقات لا ينالها القانون، والغارقون من الثروة العامة بلا حساب أو كتاب يفترون بقدر ترجح على تحدي الارض والسماء، وارتقى آخرون اعلى واعلى حتى صاروا وراء حد الرؤية Threshold of Vission في ملكوت الصعود

وآخرون يمارسون الهوى والشهوة بما لا يمكن الخوض فيه على أية صورة من الصور وليقف فيها انهم يأتون بالمبنى الكلوة المستورة فيلعبون الورق على حسابها المعارى تمهيدا الى ....

وتعيش الواح حمورابى فى وحدة الوحى د يجيه سعود محمد من محاورة الدكتور سعدون حمادى على بعد امتار وامتار فيما للايجدى إطلاقاً - والموكب امى لم منطلق الى شعارات الوحدة والحرية واشتراكية بلا وحدة ولا حرية ولا يحزنون من اقتصاد منسوب الى اى شكل لنظام اجتماعى سياسى يمكن اعطاؤه لهوية من نوع ما فيختار لبى كيف يلتقى الارث السماوى فى نزلى مع البراكماتية الامريكية وغير الامريكية بل اى مذهب اقتصادى آخر شرع به البشر .

وثانى العلاقتين هى اغرب غريب فى مجالات السياسة والاقتصاد على أوان ارتفاع الشعارات المحدودة فى مفاهيمها ومعانيها وسرابيها المؤكدة للعدالة والمساواة و اقالة المعوز من فقره واسعاف المريض بسبب العلاج والحد من النزوة التى لا يقطع روح الشرائع السبيلة فها هنا يجابهنى فى العراق منظر فريد فى التاريخ كله ما رأيت مثله ولا اتوقع ان اسمع بمثله: فالتفاوت يحدث اقل شئ عادة فى كل شئ هى وتيزايد بصعوده فى سلم التطور وهو أمر طبيعى لا يتعجب فيه احد وكل ما يحدث منا تفاوت فى ثروات الأفراد الى ما قبل انتشار المذاهب الاجتماعية الداعية الى المساواة أو الحد من مدى الفوارق، كما نه هذا التفاوت يحدث من ذاته بلا تدبير خاص فى حين تكون الحياة منضبطة ولا المداخيل معروفة الحجم ولا المجالات التنظيمية ناضجة لينصرف الجهد الى مناهضة التفاوت بشكل جذرى فتبقيت الجهود فى ذلك بحدود الزكاة وبعض الضرائب والرسوم فى تفصيل لا يختلجه .. ولقد وجدنا التفاوت يحارب حتى تبلغ نسبة ضريبة الدخل ٩٠٪ حتى ما جاوز الدخل رقما معينا .. يحدث هذا فى بلدان لم تعلن الاشتراكية فاين العراق من ذلك بما اعلنه من اشتراكية مفروضة بالقانون والدستور ؟

لاول مرة فى التاريخ يقع أن تستحدث الدولة تفاوتا فى الدخل لا يمكن ان تحصل بذاتها فيأتى القانون فيجعل راتب الفئة الفلانية ستة اضعاف راتب غيرها تضاف اليها مزايا متعددة تبلغ بالفارق الى المئتين فأكثر: فتقاعد راتبه ٦٠٠ او ٥٠٠ او ٤٠٠ دينار فى السنة يقابله موظف ذو مواصفات معينة راتبه السنوى اكثر من خمسين الف تلحقه الكرايات والهبات وعيديات تصعد بالخمسين الف الى مئة وخمسين الف فأكثر فاذا أضيفت اليه سيارة سوبر، وهى تضاف بلا شك، قفز الراتب الى الرقم . علما ان موظفى درجات وعناوين معلومة تتزوج عليهم فى الشتاء فواكه الصيف القادمة من افريقيا مرارا فى الشهر الواحد فيبيعون ما زاد من حاجتهم الى المقالين فكان العنب يباع من دكان البقال بواقع ٥٠ دينارا فى الكيلو الواحد ، ورأيت بعينى ناسا من ساكنى ضلع الجبل يرقبون هؤلاء الاسنال السماوية حتى اذا رموا قشر الموز التقطه مسكين من هؤلاء واخذه هدية الى ابنه يلعب بالحى القشر ..

قانونا يا سيدى يفرض التفاوت ويوسعه ويحميه لحكمة أمّن التفاوت نفسه ..

شرطى المرور يفرض ذاته ورغبته على كرامة الناس وجيوبهم الى حد الفجيعة ..

الرشوة قاعدة عامة فى كل معاملة بها جانب مادى أو فيها خطورة من نوع ما .. واسوأ ما فيها ان الرشوة تعدم هيبة من عدمها المؤدى الى موت المصلحة وما هو اخر من المصلحة .

السرقات تحدث بحماية من ذوى الشأن ..

التهريب .. اصطياد الحسناوات .. وكفى فقد طغى بى الكيل واترك الارث السماوى يرتق الفتوق ويحمى الفروج ويسد الثغور وبلأى الصدوع فباسمه ترتكب الجريمة ويستحل الحرام وتستباح الأعراض ولا اترك القلم قبل ان اقول: ان علاج الفجيعة لا يكون بشر غسيلنا على حبال الذرائعية الأمريكية و مروق المارقين فى أقصى الدنيا فالعلة وطنية داخلية عن مستوردة ولا مفروضة من الشياطين والعفاريت وهى منكشفة لكل عين واقرع مغباتها من اغماض العين عنها وتركها لمراجع العين ..

ودم بخير وعز واقبل فى الختام عتبى ومحبة المعتذر عن التصديع ، عارف فضلك

مسعود كم